

رواية

بوهوميل هرابال

# عزلة صاخبة جداً

26.9.2017 (26)



ترجمها عن الإنكليزية:

منير عليمي

مراجعة وتدقيق:

منصور العمري



## من الكتاب:

أسرع مباشرة إلى عملي، إلى جبل من الأوراق، كما لو كنتُ آدم، وهو يستلقي بين الأعشاب، ثم ألتقط كتاباً. تفتح عيناى على عالم غير عالمي؛ لأنني عندما أشرع في عملية قراءة، أكون في مكان معلوم ومختلف، أكون مع النصّ، نصّ مختلف ومذهل. عليّ أن أعترف أنني كنتُ أحلم، أحلم بأرض ما، بجمال عظيم. كنتُ في قلب الحقيقة. عشر مرّات في اليوم أتساءل أيّ إنسان غريب أنا؟! أيّ هدوء يتابني وأنا أنعزل مع ذاتي وأهرب من نفسي؟! أذهب ناحية المنزل، أجوب الشوارع في صمت. في هدوء رهيب، أعبّر والقطارات والسيارات والأرصفة في غيوم من الكُتُب التي جئتُ بها، وحملتُها في حقيبتى. أنا ضائع في أحلامي، أحياناً أجتاز الإشارات الضوئية؛ لأن حقيبتى مليئة بالكُتُب، وأخاف أن يستفسر أحد ما عن هويّتى، فلا أجيبه. أجوب الشوارع الصاخبة دون أن أجتاز الضوء الأحمر. أجوبها دون أدنى شعور. ولستُ قلقاً من ذلك، عندي شعور بنفسى، كما لو كنتُ كومة من الكُتُب المضغوطة. مقعد طيار رائع، ضوء مندفع من الكارما، كما لو كان ضوء ثلاجة. نار أبدية، أحملها في حقيبتى. لذلك أنا أعود إلى منزلى مثل منزل محترق، أو زربية. ضوء من الحياة ينسكب عبر النيران. النار التي تُولد من الغابات الميتة، وتترك حزناً دفيناً، ينام تحت الرماد.

بمغز قضا خجداً

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٧ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقدية شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Too Loud a Solitude by "Bohumil Hrabal"

Arabic translation copyright © 2017 by Almutawassit Books.

المؤلف: بوهميل هرابال / المترجم: منير عليمي / عنوان الكتاب: عزلة صاحبة جداً  
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.

صور الغلاف: من ثلاثية مقتبسة من الرواية، للفنان Vahid D.far.

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-75-5



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120 / 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

بوهوميل هرابال

# عزلة صاخبة جداً

ترجمها عن الإنكليزية:

منير عليمي

مراجعة وتدقيق:

منصور العمري

المتوسط











# الفصل الأول



قضيتُ خمسةً وثلاثين عاماً حتّى الآن بين الأوراق المهملة، وهي قصة عشقي. أجمعُ الورق المهمل والكتُّب منذ خمسةً وثلاثين عاماً، وأطخ نفسي بالحروف حتّى صرتُ أشبه موسوعاتي. سحقت ثلاثة أطنان جيدة منها على مرّ السنين. أنا إبريق مملوء بالماء السُّحريّ والنقي. تلقّيتُ تعليمي بشكل غير مقصود. لا أستطيع التمييز تماماً بين الأفكار التي تأتي منّي أو من كتّبي. هذا ما أبقاني منسجماً مع نفسي ومع العالم حولي خلال الخمسة وثلاثين سنة الماضية. لأنني عندما أقرأ، أنا لا أقرأ حقاً، بل أرمي جملة جميلة في فمي، وأمصّها كالسكاكر، أو أرشفها كشراب كحولي حلو، حتّى تذوب الفكرة داخلي كالكحول، وتتغلغل في العقل والقلب، ثمّ تتدفّق عبر الأوردة إلى جذر كل وعاء دموي. أراكم طنّين من الكتُّب وسطياً كل شهر. لكن؛ كي أستجمع قواي من أجل هذا العمل الإلهي، شربتُ كثيراً من البيرة خلال الخمسة وثلاثين عاماً الماضية، بما يكفي لملء مسبح أولمبي، أو مفرخة سمك بأكملها.

هذه الحكمة، تشكّلت لديّ بلا قصد. أنظرُ إلى عقلي كأنه كتلة من الأفكار، ضغطتها السوائل، رزمة من الأفكار، ورأسي كمصباح علاء الدين المصقول واللامع.»

كم كانت جميلة تلك الأيام؛ حيث كان المكان الوحيد الذي في وسع الفكرة أن ترتاح فيه هو العقل، وكل من يرغب باستخراج هذه

الأفكار عليه فقط أن يضغط رؤوس الناس. حتى هذا لن يجدي نفعاً، فالأفكار الحقيقية تأتي من الخارج، وتسافر معنا، كحساء النودلز الذي نأخذه معنا إلى العمل... بلغة أخرى، يحرق المحققون الكُتُب بلا جدوى... إذا استطاع الكتاب التعبير سيحترق، وهو يضحك بهدوء... كل كتاب جدير بملحه سيظهر، وييدي نفسه. اشترتُ حاسبة الجامع - الطراح الجذرية الصغيرة. كانت آلة غريبة بحجم محافظة المال. بعد أن استجمعتُ قواي، دفعني الفضول لفتحها بمفكِّ البراغي، فصعقتُ، وشعرتُ بالغيظ لعدم عثوري إلا على آلة غريبة أصغر حتى... أصغر من طابع بريدي، وأرفع من عشر صفحات من كتاب... وذاك الهواء... هواء مليء بمتغيّرات رياضية... عندما تحطَّ عيناى على كتاب حقيقي، وتنظران إلى الكلمات المطبوعة، ما تريانه هو نوع من أفكار دون أجساد، تحلّق في الهواء، تنزلق في الهواء، تعتاش على الهواء، تعود إلى الهواء؛ لأن كل شيء في النهاية هو هواء، تماماً كحاملها، وليست دم المسيح. منذ خمس وثلاثين سنة، أسحق الأوراق والكتُّب العتيقة، أعيش في بلاد، عُرُفت بتدريس كيفية القراءة والكتابة لخمسَ عشر جيلًا... أعيش في زمن تُحكّم فيه الممالك بالأعراف والهواجس... أعيش لأضغط الأفكار والصّور بصبر في رؤوس السكّان، بذلك أقدمّ لهم سعادة لا تُضاهى، أو ربّما حزنًا عظيمًا. أعيش بين أناس في وسعهم الانحناء على كومة من الأفكار المضغوطة. والآن يتكرّر هذا المشهد أمامي. بعد خمس وثلاثين سنة، وأنا أضغط الرِّزّ الأخضر والأحمر في آلة الهيدروليك. شربتُ البيرة لخمس وثلاثين سنة، ليس لأنني أنتشي بشربها، بل على العكس، أكره الكحوليين... أنا أشرب لأفكّر بعمق أكثر، أسافر نحو قلب ما، وأقرأ؛ لأنني لا أقرأ للمتعة، أو لقتل الوقت، أو لأخلد إلى النوم.

أنا، الإنسان الذي يعيش في بلاد معروفة بحبّها للقراءة والكتابة طيلة

خمسة عشر جيلاً...أشرب كي يمنعي ما أقرؤه من أن أعط في نوم أبدي، وأن أصاب بهذيان رعاشي؛ لأنني أشترك مع هيغل في نظريته أن الإنسان نبيل القلب ليس رجلاً نبيلًا بالضرورة، ولا مجرماً قاتلاً. لو كنت أستطيع الكتابة لكتبتُ عن أعظم أفراح الإنسانية وأحزانها. سيكون ذلك من خلال الكُتب التي قرأتها، والتي علّمتني أن الجنة ليست إنسانية، ولا أيّ شخص له رأس بين كتفيه هو إنساني، ليس الأمر أن البشر لا يريدون أن يكونوا إنسانيين، بل هو فقط يخالف المتعارف عليه. تفنى الكُتب النادرة في آلة الضغط تحت كفيّ، ولا أستطيع إيقاف تدفقها. أنا جرّار مجيد وحسب. الكُتب علّمتني نشوة التّدوير. أعشق العواصف وانكسار البواخر. أستطيع أن أجلس ساعات بانتباه محدّقاً في مشاعر خبراء المتفجّرات، وهم يفجّرون منازل وشوارع بأكملها... وأن ألمح الفضاء، وهو يعجّ بالشظايا...لا أستطيع أن أكتفي بذلك منذ اللحظة الأولى، بل أعشق من يرفع العوارض والأجرّ والصخور، من أجل إخفائها، كملابس تتساقط، كنهر يغرق بنعومة في قاع المحيط عندما تبدأ المراحل بالانفجار. هناك أجلس في غيمة من الغبار...أجلس في الموسيقى الغوغائية. أفكّر في عملي بعمق...أفكّر في قبوي الذي يحوي آلة سحق الكُتب. المكان الذي أخذ من عمري خمساً وثلاثين سنة...المكان المنار بالقليل من المصابيح الكهربائية؛ حيث أسمع فوقى خطوات تعبر السطح، تعبر فتحة في السقف...وهو أيضاً ثقب أسفل الساحة.

أرى بخور الجنة في شكل حقائب وصناديق وعلب تتساقط منها أوراق قديمة، وأعواد الورود الذابذة، ورق اللّف، برامج مسرحيات انتهى وقتها، أوراق لفّ المثلّجات، أوراق ملوّنة، أوراق مبتلّة، أوراق دامية لجرّارين، أوراق قدفتها استوديوهات التصوير.

داخل المستودع بعض التجهيزات لا تعدو أن تكون سوى صندوق لرمي الأوراق، آلة كاتبة، باقة زهور من أعياد ميلاد، أتلفتها الأيام. أحيانا أجد قطعة حصى مدفونة في حزمة جرائد لتثقيلها، سكين جيب، أو مقصاً أو مطرقة، أو نبتة، أو ربّما بعض أكواب القهوة الجافّة التي ظلّت في القاع، أو ربّما بعض باقات ورد الزفاف مع أكاليل الجنائز.

منذ خمس وثلاثين سنة، وأنا أضغط تلك الأشياء في آتي الهيدروليكية. ثلاث مرّات يتمّ نقلها في عربة في القطار، والذي بدوره ينقلها بتؤدة إلى مصنع عجين الورق؛ حيث تُنزع الأسلاك، ويُعجنُ عملي، ويتحوّل إلى نوع من القلويات، أو نوع من الأسيّد الذي يتمتّع بقوة، تسمح له بأن يذوّب شفرات الحلاقة التي اعتدتُ أن أداعب عبرها كفي. مثل سمكة لطيفة ستقفز في ماء نهر ملوّث يجري بين المصانع الممتدّة، ولكن؛ تطفو ورقة من عمود كتاب نادر؛ لتلمع. إذا ابتعدتُ، أقفز مباشرة خلفها من أجل إنقاذها، ثمّ أجفّفها فوق المئزر. أفتحها فوراً، وأنفث فيها، أوّجّه بصري إلى النصّ، وأقرأ أوّل جملة فيها، كما لو كنتُ أتتبع نوتة هوميرية. بعد ذلك، أضعها بحذر مع بعض الأشياء الرائعة في عربة صغيرة مزوّدة بخطّ مؤنث ببطاقات مقدّسة، رماها شخص ما في مستودعي البسيط بالخطأ. ثمّ يأتي دوري، لا أقرأ كل هذه الكُتب وحسب، بل أضع كلاً منها في كومة؛ لأجملّها، وأمنحها ختمي وتوقيعي، وأحرص دوماً أن أجعل كل كومة مميّزة عن الأخرى.

عليّ أن أمضي ساعتين إضافيّتين داخل القبو كل يوم، يجب عليّ أن أستيقظ قبل العمل بساعة، وأحياناً عليّ الذهاب إلى العمل يوم السبت، إذا أردتُ أن أعبر جبل الأوراق القديمة غير المتناهي. الشهر الذي مضى، رموا حوالي خمسة عشر ألف باوند من الأعمال الفنيّة النفيسة التي أُعيد

إنتاجها، خمسة عشر ألف باوند من أعمال مبلّلة لرامبرانت وهولسيس ومونيه ومانيه وكليمتس وسيزان، وأعمال فنيّة أوروبية عظيمة في قبوي، أستخدمها؛ لأجمل أكوام الكُتُب، لتنتظر بكل روعتها مصعد الخدمة. لا يمكنني أن أبعد عينيّ عنها: لوحة النوبة الليلية، وساسكيا، وهنا غداء على العشب، وهناك منزل الرجل المعلّق في أوفير، أو لوحة غويرنيكا. أنا الرجل الوحيد في هذا العالم الذي يعلم أنه في عمق أيّ كومة من الكُتُب يوجد كتاب مفتوح لفاوست أو دون كارلوس... أرى رواية هايبريون دفينة مع بطاقات ملطّخة بالدماء. هناك على أكياس الإسمنت تجد كتاب هكذا تكلم زرادشت. أنا الإنسان الوحيد الذي يعرف أيّة كومة فيها غوته أو شيلر أو هولدرين أو نيتشه. أنا فتان وجمهور، في الوقت ذاته. لكن الضغط اليومي ينال منّي، ويجعل منّي فريسة للتعب، تحبطني، وتحرقني، وأواجه هذا الضغط، وأقلل من جدّته بشرب البيرة. وأسلك طريقاً إلى الهوسنكي، من أجل الامتلاء. عليّ أن أتأقلم، وأحلم بشكل كومتي التالية.

السبب الوحيد الذي يجعلني أتعاطى البيرة هو كي أستشرف المستقبل. ففي كل كومة من الكُتُب، أدفن بعض الآثار الغالية. مثلاً أدفن كفن طفل مزخرف مع زهور ذابلة وشعر ملائكي.

صغتُ فراشاً جيداً من الكُتُب التي تُرمى فجأة في المستودع. هذا ما يجعلني دائماً في المؤخّرة من هذا العمل. لماذا امتلأت الباحة بالرّفوف المملوءة بالكُتُب القديمة. لا أستطيع الوصول إلى الفتحة في السقف، بسبب جبال الورق في غرفتي، والتي تعوقني.

لذلك، سيدي، بوجهه القرمزي والغاضب على الدوام، يدسّ عصاه أمامه؛ كي يُبعد الأوراق من الساحة، ويصرخ في وجهي:

. هاتنا، أين أنت؟ أين أنت، بحق المسيح؟! متى ستوقّف عن تعلّقك بكل تلك الكُتُب، وتشرع في عملك؟! الفناء امتلاً بالكُتُب، وأنت لم تزل هناك جالساً ومنهمكاً في أحلامك.

أُسرع مباشرة إلى عملي، إلى جبل من الأوراق، كما لو كنتُ آدم، وهو يستلقي بين الأعشاب، ثم ألتقط كتاباً. تفتح عيناى على عالم غير عالمي؛ لأنني عندما أشرع في عملية قراءة، أكون في مكان معلوم ومختلف، أكون مع النصّ، نصّ مختلف ومذهل. عليّ أن أعترف أنني كنتُ أحلم، أحلم بأرض ما، بجمال عظيم. كنتُ في قلب الحقيقة. عشر مرّات في اليوم أتساءل أيّ إنسان غريب أنا؟! أيّ هدوء ينتابني وأنا أنعزل مع ذاتي وأهرب من نفسي؟! أذهب ناحية المنزل، أجوب الشوارع في صمت. في هدوء رهيب، أعبّر والقطارات والسيارات والأرصفة في غيوم من الكُتُب التي جئتُ بها، وحملتها في حقيبتى. أنا ضائع في أحلامي، أحياناً أجتاز الإشارات الضوئية؛ لأن حقيبتى مليئة بالكُتُب، وأخاف أن يستفسر أحد ما عن هويّتى، فلا أجيبه. أجوب الشوارع الصاخبة دون أن أجتاز الضوء الأحمر. أجوبها دون أدنى شعور. ولستُ قلقاً من ذلك، عندي شعور بنفسى، كما لو كنتُ كومة من الكُتُب المضغوطة. مقعد طيّار رائع، ضوء مندفع من الكارما، كما لو كان ضوء ثلاثة. نار أبدية، أحملها في حقيبتى. لذلك أنا أعود إلى منزلى مثل منزل محترق، أو زريبة. ضوء من الحياة ينسكب عبر النيران. النار التي تولّد من الغابات الميتة، وتترك حزناً دفيناً، ينام تحت الرماد.

منذ خمس وثلاثين سنة، وأنا أضغط الأوراق القديمة في آلة الضغط الهيدروليكي. عليّ أن أكمل خمس سنوات، من أجل بلوغ سنّ التقاعد. سترافقنى آلتى، لا أريد معاقبتها، سأحتفظ بها؛ لأننى سأقتنيها من



المؤسسة. سأحملها معي إلى المنزل، وأخفيها في مكان ما بين الأشجار في حديقة جدّي عندما يحين الوقت. سأضع كومة واحدة في اليوم، لكن؛ أية كومة؟ خلاصة كل الأكوام. سأسكب فيها كل الأوهام التي علقْتُ في رأسي. كل شيء أعلمه، كل شيء أحمله، كل شيء تعلّمته طيلة خمس وثلاثين سنة من العمل. أخيراً سأعمل بأوامر الروح فقط عندما تُلهمني. كومة واحدة من ثلاثة أطنان من الكُتُب في المنزل، كومة لن أخجل منها، سأخذ وقتاً مسبقاً؛ لأفكر فيها، وأحلم بها. عندما أضع الكُتُب في آلة الضغط، سأضع عليها الزينة، وبمجرد تشغيل الآلة. عندما تنتهي السنة، سيكون لي معرضي، سأقوم بتدشين معرض من أكوام الكُتُب في الحديقة، وكل هؤلاء الذين سيأتون سيتمكّنون من رؤية عالمهم تحت مرآي، وعندما يشعّ الضوء الأخضر، ويبدأ الضغط بالتصاعد، ويشرع في حركته المتصاعدة بقوة ساحقاً الكُتُب مع الورود، ومع كل تلك الأشياء التي رفض الناس اقتناءها. المتفرّجون العاشقون سيعيشون تجاربهم الشخصية مع عملية السّحق عبر الآلة الهيدروليكية.

لكنني الآن في منزلي، أجلس على كرسي، رأسي يتداعى، وسرعان ما أرفعه، فقط عندما تصطدم شفتاي الرطبتان بركبتي. أحياناً أجنم في مكاني إلى منتصف الليل، وعندما أستيقظ، أجد جسدي منكمشاً ومُكوراً مثل قطة في الشتاء أو كرسي.

أرفع رأسي؛ لأرى ركة بنطالي مبلّلة باللّعاب. أستطيع أن أكون أنا ذاتي؛ لأنني لستُ وحيداً، ولكنني بمفردي ببساطة، أعيش في عزلي المزدحمة. متهوراً بين اللانهاية، ورمزاً الأبدية واللانهاية اللذان بدياً يُشبهان أمثالي.



## الفصل الثاني



منذ خمس وثلاثين سنة، وأنا أسحق الأوراق القديمة. أصبح لديّ كُتُب رائعة، دفنتُها في مستودعي. لو كان لديّ ثلاثة مستودعات، لامتلأت. مع نهاية الحرب العالمية الثانية، رمى شخص مجموعة من الكُتُب عالية الجودة في الآلة الهيدروليكية. عندما هدأتُ بما يكفي من أجل فتحها. ما رأيته كان طابعاً للمكتبة الروسية. وبعد أيام، وجدت المستودع يعجّ بكميّات كبيرة من الكُتُب نفسها. كانت كُتُباً جلدية مذهّبة، وعناوينها تُغرق الهواء بنورها. سابقتُ الدرج؛ لأرى الأشخاص الموجودين هناك. ما وجدته لأضغطه كان قرب «نوفي ستراشيتسي»، كان هناك مستودع مليء بعدد من الكُتُب المرّمية في الأعشاب. كُتُب في وسعها أن تأخذ عينيك حتّى تُذيب عقلك. ذهبتُ لأرى عامل المكتبة العسكري، ثمّ ذهبنا سوياً إلى «نوفي ستراشيتسي»، وهناك في الحقول، لم نجد حظيرة واحدة، بل ثلاث مليئة بكُتُب المكتبة الروسية الملكية. تبادلنا حديثاً جميلاً، كان ذلك بمفعول مجموعة من العربات العسكرية التي استغرقت أسبوعاً لنقل الكُتُب إلى وزارة الشؤون الخارجية في براغ؛ حيث توجّب عليهم الانتظار حتّى الانتهاء من تنزيل الحمولة.

أعلنت المكتبة الروسية رسمياً عن الغنيمة، وبدأ فيلق العربات العسكرية بنقل كل المجلّدات ذات الحواف والعناوين الذهبية عبر سكك القطار؛ ليتمّ نقلها بعد ذلك في سيارات كبيرة تحت المطر. عندما كانت

تنزل إلى الأسفل، كان الماء يتدفق عبرها، كان ماء ذهبياً مُرَجَّ بالسخام  
وحبر الطباعة المتدفق.

حسناً، أنا فقط وقفتُ هناك، انحنيتُ على عمود الكهرباء مندهشاً،  
وعندما ابتلع الضباب آخر سيارة، شعرتُ بأن الأمطار تمتزج بدموعي. في  
طريق العودة من المحطة، رأيتُ شرطياً بزِيَه الرسمي. توَسَّلْتُ له أن يضع  
أغلاله في يدي. توَسَّلْتُ إليه بأن يقتنع بجريمتي. أنا مجرم حقاً. أنا مجرم  
في حقِّ الإنسانية. وعندما استجاب لي، وقبض عليّ، كان يضحك محاولاً  
إخافتي بسجني. مع مرور السنوات، تعودتُ على ذلك. كل ما أفعله أني  
أخذ جلّ مكاتب المدينة من قصورها. أحمل الكُتُب المذهّبة والمُغربة  
والجميلة والبسيطة. كل كيلوغرام من الكُتُب النادرة يعادل كرونة بعد تحويل  
العملة. تكمن قوّة خلف تلك الأشياء تمكّني من رؤية العالم الذي يكمن  
خلف سوء الطالع بهدوء. أن أبقى على مشاعري.

بدأتُ أفهم جمالية التدمير. شحنت كثير من سيارات الشحن وكثير  
من القطارات التي غادرت المحطة المتّجهة إلى الغرب بسعر كرونة واحد  
مقابل كيلوغرام واحد. وقفتُ هناك أهدق، إلى أن غاب الضوء الأحمر مع  
آخر سيارة. انحنيتُ على عمود الكهرباء مثل «ليوناردو دي فنشي» الذي  
انحنى مثلي، وحدّق في الجيوش الفرنسية، وهي تستغلّ تمثاله هدفاً  
لرمي. ترمي الفارس والحصان تدريجياً. فكّرتُ كيف استطاع «ليوناردو»  
مثلي أن يكون شاهداً على مثل هذا الرعب بهدوء رهيب، وأن الجنّة لم  
تكن إنسانية، ولا حتّى الشخص الذي لديه رأس بين كتفيه.

في ذلك الوقت، وصلني خبر احتضار أمّي، لذلك قفزتُ مباشرة إلى  
دراجتي، وذهبتُ إلى البيت، لكن؛ حدث أن شعرتُ بعطش. هرعتُ إلى  
المستودع، وأخذتُ كأساً من الفخّار مليئاً بالحليب الحامض. أخذته بكلتا

يديّ، كنتُ أتجرّعه بشراهة. كنتُ شديد العطش، إلى أن رأيتُ عينين تدفّقان أمامي. كنتُ شديد العطش، وهذا ما جعلني أنهمك في عملية شرب، إلى أن أغلقتُ عينيّ مع دخول القاطرة إلى القناة مسرعة ليلاً. وفجأة أخذتني العيون، وامتلاً فمي بشيء يعجّ بالحياة. سحبتُ ضفدعاً من ساقه، وأخذته إلى مكانه في الحديقة، ثمّ عدتُ، ونظّفتُ الحليب عن ليوناردو.

عندما ماتت أمّي، بكيتُ نفسي قليلاً، لكنّ؛ لم تظهر ولو دمعة على خديّ. غادرتُ المحرقة، ورأيتُ الدخان يتصاعد من المدخنة، ويملاً السماء. رأيتُ أمّي وهي تسلك طريقها نحو الجنّة، ولكنّ؛ قبل ذلك، قرّرتُ أن أخذ رحلة تحت السقف. بعد ذلك كله، هم لم يفعلوا شيئاً مع البشرية مثلما فعلتُ أنا في كوشي هذا مع الكُتب. وعموماً، انتظرتُ إلى أن انتهت المهمة، ورأيتهم يحرقون أربع جثث مرّة واحدة. جثّة أمّي كانت الثالثة. بدت بلا حراك في الحالة النهائية للبشر. أنظر إلى رفيقي، وهو يلتقط عظامه، يطحنها في طاحونة يدوية، يطحن أمّي معها، ويترك رمادها في صندوق حديدي.

كل ما كان عليّ فعله، أن أستسلم للمشهد، وأنظر. مثلما نظرتُ إلى القطارات التي حملتُ أروع المكبات إلى سويسرا والنمسا بكرونة واحدة للكيلوغرام. أقف هناك، وأفكّر بأبيات سانديبرغ في أن كل ما يتبقّى من الإنسان هو فسفور، يكفي لصناعة علبه أعواد الثقاب أو مسمار من الحديد.

مضى شهر على وفاتها. أخذتُ ما تبقى من رمادها في جرّة إلى خالي. سرّتُ نحوه إلى حديقته، إلى برجه اللامع، كان يقول لها عودي أخيراً إلى بيتك. عندما قدّمتُ إليه الجرّة، تفقّدها بكلتا يديه، وقال إن ما تبقى

منها قليل جداً. كانت تزن قرابة مئة وخمسة وستين باوند عندما كانت على قيد الحياة. قام بوزن بقاياها بميزان، وبعد ذلك، جلس وقال إن هناك ثلاثة أرباع أونصة منها. وضع الجرة في خزانة الملابس، ومرة في ذلك الصيف، أخذ الجرة، وفتحها، وقام بذرّ رمادها على نبتة الكرنب التي أكلناها فيما بعد.

أستطيع أن أسمع طويلاً تكسّر هياكل عظمية، كلما دخلت الآلة الهيدروليكية المرحلة الأخيرة من عملها، وقامت بسحق الكتّاب الجميلة بقوة عشرين درجة. أستطيع أن أسمع تهشّم الهياكل العظمية. بينما أسحق جماجم وعظام الأعمال الكلاسيكية وعظامها، كأني أسمع التلمود يقول: «نحن أشبه بحبّات زيتون. فقط عندما نُسحق نُظهر أفضل ما لدينا».

عندما تنتهي عملية السحق، أضع كل كومة على حدة، وأقوم بشدّها بشرط فولاذي، أقوم بدفعها بإحكام، وهكذا يتسنى لي أن أمنع أية محاولة من الكتّاب للاندفاع. أفكّر فقط بما سيحلّ بصدر الرجل القوي المندفع الذي مرّق الأغلال عبر دفع الهواء بعنف في صدره. ولكن الكومة الآن في مأمّن، إنها في قبضة أشرطة الفولاذ.

كل شيء هادئ في الداخل، تماماً كالهدوء الذي يخيم داخل جرة الرماد. بوقار قمتُ بوضعها بجانب شقيقاتها. كنتُ متأكّداً من أنها ستتكاثر قبالتني عبر تحريكها؛ لأن الأسبوع الذي شرعتُ فيه بالعمل على ألف نسخة من أعمال «رامبرانت راين»، ألف لوحة لفنان عجوز ذي وجه الفطر، كان وجهاً لرجل يندفع في اتجاه الأبدية عبر فنٍّ ممزوج بالشرب. قبضة الباب تبدأ بالدوران، آخر باب يُفتح دون سبب، ويبد مجهولة لغريب. وجهه أشبه بفطيرة منتفخة، وجه مسلوخ. أبدأ بالابتسام في وجه ابتسامته البليدة. أبدأ بالنظر إلى العالم من زاوية أخرى، من ظروف الإنسان وطقوسه. كل الأكوام



هذه الأيام تزيّن بلوحات «رامبرانت راين» كرجل عجوز، أما أنا؛ فأنهمك في ملء صندوقي بالأوراق المهملة والكتّاب المفتوحة.

انتبهت اليوم لأول مرّة إلى أنني أوقفتُ البحث عن الفئران وأعشاشها وعائلاتها. عندما أرمي فئراناً صغيرة عمياء تقفز الأم خلفها متمسكة بها، وتشارك قدر الكلاسيكيات والأوراق القديمة. لن تصدّق عدد الفئران في مستودعي، مئتان ربّما أو خمسمئة، أغلبها هذه المخلوقات الغريبة اللطيفة تولد نصف عمياء. لكن؛ هناك شيء نشترك فيه. عشق رهيب للأغلفة مع تفضيلنا لأغلفة كتّاب غوته وشيلر. كوشي حالياً مليء بالغمزات وبأصوات القضم. في أوقات فراغها تلعب الفئران كالقطط، تتسلّق جوانب الآلة، وتصدر طقطقة على طول العمود الأفقي. لاحقاً يسند الرّز الأخضر؛ ليُعطي الأسطوانة إيقاعها في إيقاع متناسق، وتشرع في رمي الأوراق والفئران محدثة حالة من الغثيان. ينتهي إيقاع الآلة المقلق، لكن الفئران في ركن ما من المستودع تقف بجديّة على سيقانها الصغيرة. تُوجّه آذانها متسائلة ما سبب القلق هذا. ولكن؛ بما أن الفأر فقد مساره، ستنتهي اللحظة قريباً، وستستمر في ألعابها كالعادة في قضم الكتّاب.

لذة الورقة في قديمها، كما لو كانت جنة غارقة في القدم، أو خمراً مُعتّقة. حياتي محاطة بهذه الفئران، ولهذا أقدم إليها جميع الأوراق ودعوات المساء التي تبدو كما لو كانت وجبة يومية. وتنتظر الحمّام، تستمع بانتهاء الأمور، وتقضي ساعات في لعق وتدفئة أجسادها بالورق. أحياناً أضيّق ذرعاً بفئرائني، فأخرج لشرب البيرة، وأهيم في تأمل عميق، لأحلم وأنا أنتظر على الطاولة، وعندما أفتح معطفي لإخراج محافظتي، يقفز فأر على الطاولة، أو عندما أغادر يقفز فأران من بنطالي، فتُدعّر النادلان، وتصعدن على الكراسي، تضعن أصابعهنّ في آذانهنّ، وتصرخن: أيها المجرم الحقيّر. أبتسم وحسب، ثم ألقى التحية مغادراً، وأنا أحمل تصوّرات كثيرة لكومتى التالية.

منذ خمسة وثلاثين عاماً أرمي كل الأكوام في آتني، أشطب الأعوام والشهور والأيام حتى تتقاعد كلانا، آتني وأنا. أحضر الكُتُب كل مساء في حقيبتني إلى المنزل. امتلأت شقتي ذات الطابقين في هولشوفيتسه بالكُتُب، وهو حال القبو والسقيفة والمطبخ والمخزن، وحتى الحمام. كانت المساحة الخالية الوحيدة هي الطريق إلى النافذة والموقد. حتى الحمام، يوجد فيه مكان لأجلس فقط، ففوق المرحاض، حوالي خمسة أقدام فوق الأرض، لديّ سلسلة كاملة من الرفوف، وألواح مكدّسة حتى السقف، تحمل أكثر من ألف باوند من الكُتُب. جلوس أو نهوض واحد لا مبال، أو وضع فرشاة واحدة على الرفّ، كفيل بأن ينهار عليّ طن من الكُتُب؛ ليرميني دون سروال. لم يكن هناك مجال حتى لإضافة واحدة، فدفعت سريريّ باتجاه بعضهما، ووضعتُ ألواحاً فوقهما حتى السقف؛ لأضع طنين إضافيين من الكُتُب التي أحضرتها إلى المنزل على مرّ السنين. عندما أغفو أرى كابوساً بثقل طنين. في بعض الأحيان، عندما أكون غير مبال بما فيه الكفاية لأتقلّب في أثناء نومي أو أصرخ أو أتفض، أخشى أن أسمع الكُتُب تسقط؛ لأن رفع ركبتي أو صرخة واحدة كفيلة بسقوطها كانهيار جليدي؛ لتسحقني وفرة من الكُتُب النادرة مثل برغوث. أشعر في بعض الليالي أن الكُتُب تتأمر ضديّ؛ لأنني أسحق مئة فأر بريء يومياً، وأنها تريد الانتقام مني. حسناً يمكنها فعل ذلك؛ لأن معاصينا تطاردنا. أستلقي على ظهري شبه ثمل تحت مظلة من أميال وأميال من النصوص، وأحاول جاهداً كي أتجاهل الأمر، ولكن؛ بعد ذلك أتذكّر عندما وجد عامل الغابة حيوان سمور في بطانة ثيابه، وبدلاً من قتله الحقّ؛ لأنه أكل بعض الدجاج، يدقّ مسماراً في رأسه، ويتركه؛ لينتفض ويصرخ حتى يموت. بعد ذلك، أتذكّر كيف قُتل ابن عامل الغابة بشرط معدني مكهرب في أثناء إصلاحه خلاط الإسمنت.

ترأى لي خيال عامل الغابة أمس فجأة، تحت مظلة سريري، وتذكّرتُ

عندما كان يشحد عصاه كل مرة يرى فيها قنفاً متكوراً، ويعرّز عصاه الحادة في معدة القنفذ، كان بخيلاً؛ بحيث لم يكن ليخسر رصاصة. في يوم من الأيام، استلقى في فراشه وقد أصابه سرطان الكبد، قضى ثلاثة أشهر طويلة متكوراً في سريره، مثل كل تلك القنافذ. انتفخ بطنه، وأصيب بالهذيان قبل وفاته. هذه هي الأفكار التي تُشعّرنِي بالخوف عندما أسمع الكُتُب فوقِي تتأمر للانتقام. يُرعبني احتمال سحقها لي، وسقوطي من الطابق العلوي إلى السفلي كمصعد. أفضل النوم في مقعدي قرب النافذة. أرى حياتي متناسبة بشكل جميل: في العمل لديّ كُتُب وزجاجات ومحابر وكبّاسات، تُمطر عليّ من فتحة في سقف القبو، وفي المنزل لديّ كُتُب فوقِي، تهدّدني باستمرار بالسقوط عليّ وقتلي، أو على الأقلّ، تشويهي. سيوف ديموكليز التي علّقتها في سقفي الحمام وغرفة النوم تُجبرني على مقارعة البيرة في المنزل، كما في العمل، فهي دفاعي الوحيد ضدّ البؤس الجميل.

أزور عمّي مرة في الشهر، وأبحث في حديقة منزله عن مكان لوضع التي عندما تتقاعد. كانت فكرة إنقاذ الآلة الهيدروليكية وشرائها عندما أتقاعد له، وليست لي. أمضى أربعين عاماً كعامل سكك حديدية، يرفع ويخفض البوابات على المعابر، أربعين عاماً وهو يعمل في برج الإشارة، أربعين عاماً لا يستمتع بشيء سوى عمله مثلي. عندما تقاعد، اكتشف أنه لا يستطيع العيش دون برج إشارة، لذلك اشترى برجاً مستعملاً من محطة حدودية، لم يعد قيد الاستخدام، وأحضره إلى حديقة منزله. بعد ذلك، أحضر بعض من أصدقائه المهندسين المتقاعدين قاطرة صغيرة من صنع شركة أورينتشاين وكوبل، كانت تسحب حاويات القمامة والعربات في مصانع الصلب. أحضروا أيضاً بعض السكك وثلاثة عربات وجدوها بين أكوام الخردة، في مكان ما. وضعوا السكك في الحديقة القديمة، وحول أشجارها، وأصبحوا يحركون عربات أورينتشاين وكوبل كل سبت

وأحد. كان يسمحون للأطفال بالصعود؛ ليأخذوهم في رحلة عبر السكك بعد الظهر، وفي المساء، يشربون البيرة، ويغنون. أحياناً يصعدون جميعاً في العربات؛ لبيدو المشهد كتمثال إله نهر النيل؛ حيث يجلس أدونيس عارياً وعليه تماثيل صغيرة.

ذهبتُ في أحد الأيام لرؤية عمِّي، ولأبحث عن مكان لآلتي، ومع حلول الليل، بدأ القطار بأصواته المتوهجة بالدوران حول أشجار التفاح والكمثرى بسرعة قصوى. رأيتُه يجلس في برج الإشارة، منشغلاً بمفاتيح التحكم، وكان إبريقه يعكس الوميض المتقطع، ويلمع مثل جميع أجزاء عربات أورينتساين وكوبل.

منذ أن مشيتُ خلف صياح الأطفال وشتائم العجائز دون أن يهتف بي أحدهم للانضمام، أو يقوم بطرح سؤال إذا ما كنتُ أريد الشرب... كانوا دائماً منهمكين في ألعابهم التي لا تبدو شيئاً في النهاية غير طقوس يومية تماماً كالوظيفة التي يستمتعون بها كامل حياتهم.

أنا ببساطة أظللُ أمشي، أسلكُ طريقي مثل قابيل، وبعد ذلك، بعد أن أمشي مدة ساعة أو أكثر أعود لأرى ما إذا كان أحدهم يناديني. ما رأيتُه أن لا أحد كان يعيرني اهتماماً. عندما أعبُر البوابة أعود مرةً أخيرة، ما رأيتُه مع إضاءة العمود الكهربائي والعمود الذي ينير برشاقة. كان مضطرباً كرسم بياني، كان القطار يلاحقهم بصقاراته مُحدثاً ضجيجاً، متابعاً رحلته إلى أن تأتي رحلة أخرى. موسيقى أورغن تُكرَّرُ إيقاعها، اللحن جَذَاب، ولا رغبة لي في سماع لحن آخر، إذا ما ظللتُ على قيد الحياة. لذلك لم يرني أحد. كنتُ أتجول بين الأشجار. رفع يده عن مفاتيح التحكم، ولوّح لي بأصابعه بحركة غريبة، كما لو كان يحاول تحريك الهواء. لَوَّحْتُ له عبر الظلام. بدونا حينها كما لو كنَّا نودّع بعضنا من قطارين يندفعان بجهتين متعاكستين.

عندما بلغت ضواحي براغ، اشتريتُ بعض النفاق، كنتُ خائفاً؛ لأنني  
عندما كنتُ أرفعها إلى فمي، كنتُ أشعر أنها تنظف شفّتي الدافئتين.  
وعندما كنتُ أنظر إلى الأسفل، كنتُ أضعها في مستوى خصري. رأيتُ  
نهايتها الأخرى تلامس حذائي. ولكن؛ عندما رفعتها بكلتا يدي، بدت عادية  
جداً، وبهذا علمتُ أنني تقلّصتُ في آخر عشر سنوات.

عندما عدتُ إلى المنزل، دفعتُ مئتي كتاب عن باب المطبخ، ووجدتُ  
الأسطر التي اعتدتُ أن أخطأها بقلم لا يمحي خطّه؛ كي أرى طولي في تاريخ  
محدد. أخذتُ كتاباً، وقفتُ على هيكل الباب، ودفعتُ الكتاب على  
رأسي. عندما عدتُ إلى المكان رسمتُ خطأً آخراً. أستطيع أن أخبر بعين  
مجرّدة أنني في ثماني سنوات تقلّصتُ أربع بوصات. لا بد أنني تقلّصتُ  
تحت ثقل مظلة الكُتب التي تزن طنين.



## الفصل الثالث





منذ خمس وثلاثين سنة، وأنا أجمع الأوراق القديمة، إذا توجّب عليّ اختيار عمل آخر، فسأظل في عملي هذا الذي أخذ من حياتي ثلاثة عقود. تتحوّل حياتي من نسقها الإيجابي إلى نسقها السلبي، وتتحوّل الغرفة بدورها إلى جحيم. الأوراق المهملة المكدّسة يزداد طولها؛ لتبلغ السقف، نديّة ومتعفّنة، متخمّرة وتبدو كسماد لزج، كمستنقع ينحلّ في أعماق قبوي. فقاعات ترتفع إلى السّطح، كما لو كانت خيوطاً من دخان تبتثق من الطّين المتعفّن. عليّ أن أستنشق هواء آخر، عليّ أن أبتعد عن الآلة الهيدروليكية، لكنني لم أبتعد. لا أستطيع أن أستنشق الهواء النّقي، إنّه يجعلني أسعل وأختنق وألفظ اللّعاب، كما لو كنتُ أدخّن سيجارة هافانا. لذلك عندما يصرخ المدير، ويلوي كفيّ، ويصبُّ عليّ وابلاً من التّهديدات، أبتعد، وأقف مفتشاً عن قبو آخر. أفضلُ غرفة تحكّم التدفئة المركزية؛ حيث يقبع رجال بشهادات عليا، مُقيّدين ككلاب، ويكتبون تاريخهم كبحث سوسولوجي.

علمتُ أن المدينة الرابعة أُخليت من السكّان، وأن الطبقة العاملة غادرت القبو، وصعدت إلى البنية الفوقية، وكيف أن الأكاديميين تابعوا عملها. أعرّأ صدقائي كانا عضوين سابقين في أكاديمية العلوم، وعُيّنّا للعمل في أحد المجاري، لذلك قرّرا أن يؤلّفا كتاباً عن حياتهما حول حركتهما تحت براغ. كانا قد علّماني أن البراز الذي يدخل منشأة المجاري

أيام الأحد من بودابا يختلف عن ذلك الذي يدخل أيام الاثنين، وأن كل يوم يختلف عن الآخر. ويمكن رسم التدقق في مخطط بياني، ومن خلال ارتفاع أو انخفاض نسبة عقارات منع الحمل، يمكنك معرفة تواتر ممارسة الجنس في مناطق براغ. أذهلني أصدقائي اليوم بتقرير حربي. حرب شاملة وإنسانية بين فئران بيضاء وأخرى بنية، والتي تنتهي بنصر مُطلق للفئران البيضاء التي تقودهم فوراً إلى انقسام في شكل مجموعتين، أو عشرينتين متقاتلتين. نوعان من فصيلة القوارض يدخلان في لحظة الموت والحياة، من أجل السيطرة على المجاري. ولكن؛ سرعان ما تنتهي الحرب. أصدقائي القدامى في أكاديمية أشغال المجاري أعلموني أن الفريق المنهزم سيُدمر قريباً مثل غازات أو حديد أو مواد عضوية، ويؤول إلى نوعين من المعسكرات المتصارعة والمتناحرة. معركة السيطرة تُعيد الحياة والرغبة في إيجاد حلّ للمعركة بما يشتر بتوازن قريب. العالم لم يتوقّف عن التعثر ولو للحظة. أستطيع الآن أن أثبت أحقيّة «رامبو» عندما كتب أن معركة الروح مرعبة مثل كل حرب مسلحة. أستطيع أن أستنشق المعنى الصحيح للكلمات المسيح القاسية «ما جئت لألقي سلاماً، بل سيفاً». وعليّ أن آخذ دروسي دون إرادتي.

كنتُ دائماً منبهرًا بـ «هيغل»، بما أنه علمني أن المكان الوحيد على وجه الأرض الذي يكتسي أهميّة هي حالة يُحجّر فيها الإنسان، ويتجمّد؛ ليشرع في الاحتضار. كل ما هو جميل في السعادة هو أن تكون وحيداً دون حاجتك إلى المجتمع. هم يشنون حرباً من أجل معركة حاسمة، معركة من أجل إثبات الذات. أمشي في شوارع براغ حول الطريق المؤدّية إلى المستودع. أبصرتُ عبر الأشعة، وحدقتُ إلى الأسفل متفحصاً الأرضة المرئية في المجاري، من أجل إيجاد مجموعة من القوارض، وهي تحوك العمليات، من أجل بقية الجيوش. جنرالات الجرذان ينبحون مطلقين

أوامرهم عبر أجهزة الاتصال حول الموضوع الذي تركيز الضغط عليه. لكنني أكملتُ المشي مُنصتاً إلى صوت حادّ لفئران تُداس تحت قَدَمَيَّ مُفكِّراً في كآبة العالم الأبدية وسط هذا الكمّ الكبير من الدمار. عندما أنظر إلى أعلى عبر دموعي، أرى شيئاً لم أراه من قبل، تحديداً واجهات المباني الحكومية أو الخاصّة. أستطيع أن أراها عبر المزاريب. تلك المزاريب التي انتقى منها هيفل وغوته أفكارهما. اليونان في ذواتنا، بأهدافها وطابعها الإغريقي. رأيتُ دورية وبالوعات مغطاة بنسيج صوفي، رأيتُ أعمدة حلزونية. رأيتُ دهايز بدت كما لو كانت قصوراً، كاتدرائيات، درابزين تلامس أسقف البيوت. رأيتُ ذلك كله في أقسام ضعيفة من هذه المدينة. اليونان تلازم كل المباني التقليدية. البوّابات مزينة بالرجال في المدارس والجامعات. قيل لي شرق أوروبا لم يبدأ خارج بوّابات براغ، بل بدأ في محطة سكة الحديد الإمبراطورية في مكان ما من غاليسيا.

تشارك براغ مع الروح اليونانية... تذهب أعمق من واجهات البنايات. تذهب إلى رأس العامة مباشرة؛ لأنّ الجمنازيوم والجامعات الإنسانية قامت بحشو ملايين التشيكيين بالأفكار اليونانية والرومانية. وعندما يوقر عمّال المجاري هذا المشهد في حرب بلا مشاعر بين جيوش الفئران، تتحوّل الأكواخ إلى مقرّ لملائكة براغ المتساقطة. الجامعة تُعلّم الإنسان الذي خسر معركة بأنهم لم يقاتلوا أبداً، بل هم في طريق متواصل، من أجل صياغة صورة أجمل لهذا العالم.

عندما عدتُ إلى قبوي، رأيتُ فأراً يركض ويقفز من أجل أن يقول أهلاً. فكّرتُ بالفتحة التي في زرّ المصعد، وبعامل المجاري الذي أخذه إلى الوادي. نزلتُ السَلَمَ ماسكاً بقواي... أزحتُ الغطاء جانباً، وأنصتُ إلى خرير مياه المجاري وتصفيق الماء في المراحيض، إلى إيقاع تسرُّبها من حوض الاستحمام، إلى صدى الشواطئ.

سمعتُ الفئران وهي تُبحر عبر نعيقها وقضمها للحم. كانت سعيدة ومبتهجة. كانت الأجساد ترتطم، والمعركة تندفع. ينبعث صوتها من بعيد. انتهيتُ من حرب الفئران، وعلمتُ أنها ستنتهي في النهاية باحتفال، إلى أن تجد سبباً آخراً مُقنعاً، من أجل الشروع في حرب أخرى. وضعتُ الغطاء، وعدتُ إلى عملي، مُدججاً بمعلوماتي الجديدة حول حرب شرسة أخرى، ستدور رحاها الآن تحت قَدَمَيَّ. وإن لم تكن حرباً بين فئران، فستكون حرباً بين بشر. ولكن؛ كيف سأكون أنا، بعد خمس وثلاثين سنة من جَمْع الكُتُب القديمة... أنا أكبر مثل فأر يعيش داخل مستودع طوال الوقت. لا أحب الاستحمام، رغم أنه لدينا حمّام خلف مكتب المدير؛ لأنني إذا استحمتُ، أعلم أنني سأتي بشيء ما. عليّ أن أذهب إلى المشرفة على الصّحة، أنا أعمل بيدين فارغتين، لا أستطيع غسلهما حتّى الليل؛ لأنني إذا قمتُ بغسلهما مرّات عديدة في اليوم، سيُدَمّر جسدي. لكنني أحياناً، نتيجة لشوقي إلى النموذج اليوناني للجمال، سأغسل إحدى قَدَمَيَّ، أو رقبتي. وفي الأسبوع التالي، أغسل قَدَمَي الأخرى وذراعاً واحدة. وعندما يأتي أحد الأعياد الدينية سأغسل صدري وقَدَمَيَّ. ولكن؛ في تلك الحالة سأتناول مضادّات حساسية مسبقاً؛ لأنني قد أصاب بحمى القش حتّى وإن كان هناك ثلج على الأرض.

الآن أنا في غرفتي، أقوم بضغط الكُتُب، وترصيفها. أضع عملاً فلسفياً كلاسيكياً في كل كومة. أشعر أن جسدي مرتاحاً هذا الصباح بعد تنزّهي في براغ، وأن عقلي خال من الشوائب؛ لأنني لستُ وحيداً؛ لأن في براغ آلاف مثلي يشتغلون في الهامش في الأقبية... ولديهم أفكار حيّة ومُلهمة في رؤوسهم. هدّأتُ من روعي قليلاً، فعملي يسير بنسق إيجابي، أفضل من الأمس.

سأترلق في رحم الزمن، إلى شبابي، عندما كنتُ أكوي سراويلي، وألمعُ أحذيتي كلَّ يوم سبت؛ لأنك عندما تكون طفلاً تُرغمُ دائماً على أن تكون نقياً، تحبُّ صورتك الذاتية، الصورة التي تتجسّد في ذاتك. ويكون عليك دائماً الحفاظ عليها، وتطويرها. على كل حال، تدور المكواة في الهواء، إلى أن تندفع حرارة الجهات المتغضّنة، أغطّيها بقطعة قماش أخرى. في النهاية، أقوم بعملية كيّ حذرة جداً خصوصاً للساق اليمنى، بما أنّها دائماً مهترئة، بسبب عادتي في الركوع على الأوساخ بعد رمي القناني الخشبية. في النهاية، عندما يُخيمُ عليّ التعب، أضع القبعة جانباً، وأستجمع أنفاسي؛ كي أرى إذا تمّت تسوية الخطوط العالقة؛ لأنني حينها لن يتوجّب عليّ إلا أن أرتدي سراويلي، وأقف مثلما أفعل كل يوم سبت في ساحة القرية، قبل أن أصل إلى كومة الخشب عند لوار تافيرن. أستدير، وأستطيع أن أرى أمّي، وهي تنظر ما إذا كان كل شيء على ما يرام.

إنه المساء، أنا في حفلة رقص، في انتظار ماري، مانسا مثلما أخطبها. الفتاة ذات الأشرطة المتدلّية، الأشرطة التي تُزيّن شعرها. فرقة موسيقية تعزف، وأنا أرقص معها. العالم يطوف بنا، كما لو كان كوكبة خيل. عندما رأيتُ مانسا تسرّبتُ في داخلي فناعة أنّنا نستطيع أن نرقص البولكا. رأيتُ أشرطة مانسا، وهي تتأرجح حولي. تتراقص مع الرّيح. وكنتُ كلّما شعرتُ برغبة في التوقّف، بدأت الأشرطة في التّدلّي. أخذتها، وطفّت بها ثانية مُحدّقا في يديّ، الأصابع التي تمسك بيديها اللّتين عُطيتا بقطعة قماش مُطرزة. أوّل مرّة أخبرتها أنّي أحبّها، وهمستُ لي بأنّها تحبّني أيضاً، كانت أيام المدرسة. وبعد ذلك، احتضنتني، وضغطتُ عليّ، كنّا قريبين، كما لم نكن كذلك من قبل. طلبت منّي أن أكون شريكها كاختيار من امرأة. صرختُ نعم، لم لا؟! لكن؛ لم يبق وجهها وضاء، بل خيم عليه الشّحوب.

عندما عادت، كانت يداها باردتين، بدأنا ثانية في عملية طوافٍ أخرى، كل شخص يرانا سيلمح راقصين ماهرين. كم كُنَّا رائعين معاً، يا لنا من عاشقين! عندما كُنَّا نرقص البولكا كُنَّا نصل إلى أقصى درجات النشوة. بدأتُ شرائط مانسا تُحلَّق في الهواء. بشرائطها التي كانت بيّنة اللون. اكتشفتُ أن العاشقين الآخرين قد توقّفوا عن الرقص، أو ربّما كانوا يهربون منّا قَرَفاً. ثمَّ أحاطوا بنا في حلقة كبيرة، لا للإعجاب بنا أو الهروب منّا، فقد كانت حركة رَقْصنا ترشّهم بشيء فظيع. لم نستطع أنا ومانسا تحديد ما هو، ركضتُ أمَّ مانسا، وسحبتهَا من يدها؛ لتركضنا خارج قاعة الرقص بعيداً عن لوار تافيرين.

لن تعود مانسا ثانية، لن أراها مرّةً أخرى. ما حدث أن مانسا كانت سعيدة جداً باختيارها كامرأة. كانت سعيدة جداً عندما قلتُ لها أحبّكِ، فهرعتُ إلى قاعة الرقص، ودون أن تدرك تلوّث شريطها بالبراز عندما جلستُ على المراض، وعندما ركضتُ إلى قاعة الرقص، بدأ البراز يتطاير من شريطها على الراقصين مع دورانها، ومنذ ذلك الوقت، اكتسبتُ اسم مانسا الحمقاء.

أضغط الأوراق المهملة، وعندما أضغط الرّزّ الأخضر تبدأ الآلة باندفاع، وعندما أضغط الرّزّ الأحمر تتراجع، وهذا يصف حركة العالم الأساسية مثل طويات الأكورديون التي تعود دائماً إلى نقطة البداية. مانسا تخلّت عن مجدها، تخلّت عن المجد، غادرت بعار، لم تتسبّب فيه. مادام كل الذي حصل بشرياً أكثر من اللازم. كان غوته ليسامح إيلريك ليفتزو بخصوص الشريط، ويمكن أن يسامح شيلنغ كارولين، ولكن؛ يبدو أن لينينز لن يسامح خليلته المليكة صوفي كارولين، لعدم قولها شيء عن هولدرلين فائق الحساسية وزوجته غونتراد.

بعد خمس سنوات عندما وجدتها، بعد أن رحلت العائلة إلى مورافيا للهروب من الشريط، سألتها الصّبح؛ لأنني أشعر دائماً بأنني مُلام على جميع الأشياء التي تحدث. كل شيء تصفّحته في الأوراق المهملة. في النهاية، صفحت عني. لذلك قمتُ بدعوتهَا إلى رحلة؛ لأنني فزتُ بخمسة آلاف كرونة في لعبة قمار. لا أستطيع الانتظار، أنا أكره المال، أكره الحديث عن حساب بنكي لجمع الأموال.

ذهبنا إلى رينير في غولدن بيك. نزل باذخ يساعد على صرف المال بسرعة، ولا يجعلك تلوم نفسك على إهداره. كل ليلة كان الزبائن يسعون إلى التقرب من مانسا؛ لأخذها مني خصوصاً أحد المصنّعين، وعلى ما أذكر، كان حزناً، لكنني كنتُ سعيداً؛ لأنني كنتُ أصرف المال. أصرفه على أي شيء تعشقه قلوبنا. كان ذلك أواخر شهر شباط/نوفمبر، الشمس تبرز كل يوم، كل يوم تذهب مانسا إلى التزلج، تُحلّق مع كل تجاوز لهضبة دون أن ترتدي قفّازات، كانت ترتدي معطفاً، كانت مُحاطة بالرجال، بينما كنتُ جالساً وأرتشف الكونياك؛ حيث يجتمع الرجال كل ظهيرة في الساحة المقابلة لواجهة النزل.

تطلّ مانسا تتزلج إلى أن يحين الغداء، الوقت الذي تقفز فيه مباشرة إلى النزل. في آخر أيامنا هناك، أو اليوم قبل الأخير، لم أنفق غير خمسمئة كرونة. كنتُ جالساً وسط كوكبة من الزبائن نشاهد مانسا السمرء والجميلة تُحلّق في قمة غولدن بيك. كنتُ جالساً، وأطرق كؤوس النبيذ مع السيّد جينا صاحب المصنع الذي أخذني بدوره إلى صاحب مصنع آخر؛ لأراها تختفي خلف أجمة من أشجار الصنوبر والتنوب، ثم تعاود الظهور؛ لتكمل رحلتها السريعة، وتعود إلى النزل ككل مرة. كان يوماً شديد الروعة، وكانت الشمس مشعّة بدفئها، إلى درجة أن جميع الكراسي والأرائك كانت

محجوزة. كان أحد العاملين يجلب كراسي وأرائك إضافية. كانت مانسا تنزّه. كان السيد جينا على حقّ، كانت جميلة كلوحة في ذلك اليوم، ولكنّ؛ عندما تجاوزتُ شمس الرهابين الأولى، رأيتُ أن نساء يلاحقنها، ويضحكن، وكلّما اقتربتُ منّي، بدأتُ ضحكاتها ترتفع، الرجال الذين رأيتهم كانوا مُرتخين على كراسيهم، رافعين صُحفهم أمام وجوههم، مُتجنّبين أن تنحني عليهم، أو ربّما كانوا يبحثون عن ملجأ، يقيهم حرّ الشمس. عندما انزلقتُ نحوّي، ما رأيتُه في زلاجاتها تحت نعلها، كان قطعة روث كبيرة، قطعة روث بحجم الأوراق التي تغنّى بها أورشليكي في قصيدته السامية، وبعد ذلك، علمتُ أن الوقت حان لبلوغ الفصل الثاني من حياتي مع مانسا. مانسا التي لم تعرف المجد من قبل، ولن تتخلّى عن العار.

حسناً، السيد جينا، رجل الأعمال أخذ بعين الاعتبار أهمّ عمل، قامت به مانسا بمزلاجها خلف أشجار الصنوبر في تلال الغولدن بيك. كان يوماً شاحباً، شابت الحُمْرة وجه مانسا حتّى جذور شعر رأسها. الجنّة ليست إنسانية، ولا الشخص الذي يحمل رأساً بين كتفيه.

ها هنا أقف، أضغط كومة خلف أخرى. أترك الكتاب مفتوحاً على أهمّ فصل فيه، ولكنّ؛ وأنا أعلم، أفكاري كلها كانت مُنصبّة على مانسا، مانسا التي ساعدتني على أن أشرب بما تبقى من مال في تلك الليلة. ولكنّ؛ لا الشامبانيا ولا الكونياك في وسعه أن يأخذ صورة مانسا وهي تنزّه أمام الجميع. أكملتُ بقية الليلة أترجّأها بأن تسامحني على ما حدث. لكنها رفضتُ. في الصباح الباكر، غادرتُ نزل رينير رافعة رأسها. كنتُ أنصتُ إلى قولة لاوتزه «أنت تعلم عارها، ومع ذلك تسعى إلى مجدها». ذلك مثال رائع حول تلك المرأة.

فتحتُ كتاب الفضائل الكنّسية على صفحة مناسبة، وضعتُه كما لو



كنتُ قديساً فوق هيكل آلة الضغط التي ملأتها بالأوراق المُعدّة لتغليب ورق تغليف الفطائر وأكياس الإسمنت الفارغة. ضغطتُ الرزّ الأخضر، بدأت الآلة بالتدافع كأصابع تشابك في موضع سجود. رأيتها وهي تسحق كتاب الفضائل الكنسية. شبكة جمعيات قادتني إلى مانسا الجميلة التي قضيتُ معها شبابي. من الأنفاق والمجاري؛ حيث علق جيشان من الفئران في معركة مع الحياة والموت، أتى صوت مياه المجاري، مثل نصّ جوفي. كان اليوم جميلاً.



## الفصل الرابع



في ظهيرة ما أحضر لي عمّال المسلخ حمولة كبيرة من الأوراق الملطّخة بالدماء مع ضناديق مبلّلة بالدماء، عربة خلف أخرى، إلى درجة أنني لم أستطع أن أظّل منتظراً؛ لأنها تحتوي على رائحة لذيدة، والتي تدفعني غالباً إلى أن أكون مُلطّخاً بالدم مثل مئزر جرّار. في نوع من الانتقام، غيرتُ بثقة موضع كتاب كبير. كتاب مديح الحمق لإيراسموس روتردام إلى الكومة الأولى وكتاب لفريدريش شيلر إلى الكومة الثانية، إلى درجة أنني شعرتُ بأن الكلمات ستتحوّل إلى جسد دام. رميتُ كتاب هو ذا الإنسان لنيتشه في الكومة الثالثة. وعندما كنتُ أعمل، كان هناك فريق أشبه بعاصفة من الذباب قدم إليّ مع أوراق المجزرة. كان الذباب يطوف برأسي، ويئنّ مهاجماً وجهي.

بينما كنتُ أحتسي كأس البيرة الرابع، اكتشفتُ نظرة جميلة لرجل يقف بجانب الآلة. علمتُ لاحقاً أن مَنْ كان يجلس هنا هو المسيح نفسه. فجأة التحق به شخص ذو وجه مليء بالتجاعيد، وعلمتُ فوراً أنه لاوتره؛ إذ كانا هناك جالسين جنباً إلى جنب. الأفضل بالنسبة لي أن أقارن بينهما. رجل عجوز وشابّ في مقتبل العمر. آلاف من حشرات بلون الكوبالت كانت تنتفض. أجنحتها المعدنية وأجسادها كانت تُزخرف لوحة ضخمة، تُصاغ فجأة بغطاء، وتندفع مثل تدفق لرسومات لذلك الرهيب جاكسون بولوك.

لم أكن متفاجئاً بوجودهما معاً هناك. جدودي العظماء لديهم رؤى

عندما يشربون. لكنهم يرون شخصيات مثالية. التقى جدّي جميع أصناف عرائس البحر وكل الحوريات في رحلاته. جدّي العظيم يؤمن بالعفاريات، بالأشباح والجنيّات اللائي رآهنّ في ليتوفل برويري لصنع البيرة. بالنسبة إليّ، في مدرستي التي لم أخترها، عندما أرتخي وأغرق في النوم تحت أطنان من سرادق الكُتب. كنتُ أرى رؤى شيلنغ وهيفل اللذين وُلدا في السنة نفسها.

مرّة عندما كان إيراسموس روتردام فوق حصانه، سألني كيف أبلغ البحر. كنتُ مصعوقاً حين ظهر لي أهمّ ما أعشق. رأيتُهما جنباً إلى جنب. كم هي هامّة أعمارهما، من أجل فهمّ تعاليمهما عبر تحليق الذباب على خمرتي، وعلى السترة الملطّخة بالدماء. ضغطتُ الرّزّ الأخضر مباشرة، ثمّ ضغطتُ الرّزّ الأحمر. كنتُ أرى المسيح شابّاً متحمّساً منكبّاً على تغيير العالم، يرتفع ويأخذ مكان لاوتزه أعلى القمة. عندما كان الرجل العجوز ينظر مدعناً إلى العودة إلى الخيوط التي تُمسك بالأبدية. رأيتُ المسيح وهو يُلقى بعض الصلوات على الحقيقة، ويقودها في اتّجاه المعجزة، بينما كان لاوتزه يتابع قوانين الطبيعة عبر التاو، الطريقة الوحيدة لتتعلّم الجهل. وفي لحظة، وجدتُ نفسي أملاً ذراعياً بالنيذ، بالأوراق الحمراء وفجأة لُطّخ وجهي بالدماء. لاحقاً ضغطتُ على الرّزّ الأخضر. بدأت الآلة تسحق الحشرات مع الأوراق القذرة، الحشرات المليئة بالدم لا تستطيع أن تُبعد نفسها عمّا تبقى من اللحم، والتي كانت غبية لانسجامها مع رائحتها، والتي بدأت بالدوران والتزواج. وعندما دفعته العاطفة إلى الرقص على ساق واحدة. رقصة موحشة. كوناً فلماً ثقيلاً أساسه الجنون حول صندوق مليء بالورق، كما لو كانا نيترون وبروتون يطوفان حول ذرّة.

أشرب من كأسِي، بينما كانت عيني جاثمة على المسيح الصغير،

كانت الغيرة تخيم على الشباب والفتيات الجميلات. كان لاوتره يبحث فقط عن قبر لائق. حتى لو بلغ نسق الضغط آخر نقطة، وبدأت الأوراق في ضخّ الدماء وعصير الذباب الممزوج بالدماء. رأيتُ المسيح الصغير وهو لم يزل مشوّشاً بنشوة أن يصبح يافعاً، بينما كان لاوتره ينحني بحزن شديد، ويفكر على حافة الصندوق، بازدياد، وغير مبال. رأيتُ المسيح وهو يُصدر الأوامر بثقة، يدع الجبال تندفع، بينما كان لاوتره يخيّط شبكة من العقل لا تُوصَف. رأيتُ المسيح في لولبية متفائلة، ولاوتره في حلقة مغلقة. المسيح منتفش في حالة دراماتيكية، أما لاوتره؛ فكان ضائعاً في فكرة حول الانحلال إلى صراع داخلي.

عندما اشتعل الضوء الأحمر، وبدأت آثار الدماء بالانقشاع، عدتُ لأرمي الصندوق والكرتون والأوراق الملطّخة بالدم والملفوفة في الصندوق، ولكنني وجدت قوّة أيضاً في أن ألقى نظرة عابرة على نيتشه، أو على الأقل، على صفحات حول الصداقة الكونية مع ريتشارد فاغنر قبل أن أرميه في الصندوق، مثلما يرتمي طفل في حوض، من أجل صفع عاصفة الذباب الأخضر والأزرق التي تهاجم عينيّ مثل أوراق الصفصاف. في تلك اللحظة التي ضغطتُ فيها على الرّزّ الأخضر في وسعه أن يأتي بخطى رشيقة، وينزل درج الكوخ عبر تنورتين. واحدة فيروزية اللون، وأخرى بنفسجية، تنورتين لعجريتّين تأتيان غالباً مع الوحي. تأتيان عندما لا أتوقّع ذلك، وعندما اعتقدتُ أنهما ماتتا، بعد أن قطعْتُ حنجرتيهما بسكين الحبيب. هاتان العجريتان اللتان كانتا تجمعان الأوراق المهملة، وتسحبها على ظهرهما في حزمة مثلما تحمل النساء حزم القشّ من الغابة في الأيام الخوالي. تتهاديان في مشيتهما عبر الشوارع المزدهمة، والناس يقفون على الجانب الآخر من أجلهما، ثمّ يتراجعون في عتبات الأبواب. كانت أحمالهما كبيرة؛ بحيث كلّما أرادتا دخول ساحتنا، كانتا تُغلقان المدخل،

ثمّ تدخلان بصعوبة . تنحيان وتستديران وترميان كومة الأوراق. تتخلّصان من الأشرطة، وتحرّزان من قيدهما الكبير، وتتجهان مباشرة إلى الميزان، وتمسحان جبهتيهما، تنظران إلى الشاشة التي تظهر غالباً خمسة وسبعين، وأحياناً مئة أو مئة وخمسة وعشرين باونداً من الأوراق والصفحات المهملة القادمة من الأسواق ومراكز التوزيع. عندما تبدآن في استباقي، وفي كلّ مرّة تقذفان إليّ الأوراق تكون الهدايا أشدّ روعة. كانتا في القطار، في وسعهما أن تأتيا من أجل دفع ثمن الزيارة. ترميان قطع القماش، وتسقطان على أكوام الأوراق الجافّة، وتقومان بلفّ تنوّرتيهما إلى بطنيهما، ثمّ تقومان بلفّ سيجارة، وإيقادها. ترتميان على ظهريهما، تشهقان من مفعول الدخان، كما لو كانتا تمضغان الشوكولا. صرخت بتحية، وسرعان ما حُوصرتُ بجيش من الذباب. أستطيع أن أرى العجريات بلونهنّ الفيروزي. كانت عجربة مُنحنية على ظهرها، وتنوّرتها أعلى بطنها. فخذها جذّابان، بطنها عار، شعرها يتماوج مثل نار، يدها تحت منديل يحتضن الظلمة، شعر رطب، ينساب على رقبتها، الأخرى ترفع سيجارة، وتضعها بين شفّتيها، آه، كم تبدو صادقة ومنهكة، منهكة من قبَل مُشغليها المُستبدّين.

حقيقتي تختصر عالمي، أخذ فيها السلامي والخبز عندما أكون في طريقي إلى العمل. لم أخذها معي إلى المنزل؛ لأنني لا أستطيع أكل أيّ شيء عندما أكون ثملاً؛ لأن السعادة تغمرني رغم الجهد إلا أنني أظلّ ممتلئاً.

لقت الفتاتان نفسيهما بالورق، كما لو كانتا كرسيّين حجريّين، ووضعتا السجائر في شفاههما، واندفعتا نحو الحقيقة. أربع أياد تأخذ السلامي، تقسمانه بالتساوي، وتقومان لاحقاً بنفث السجائر في تناغم. تدفعانه بكعب حذائيهما. جلسنا، وبدأنا العمل.



عندما انتهينا من تنظيف السلامي، بدأنا بالخبز، وكم كنتُ منشراحاً وأنا أراهما، وتأكلان فجأةً وبجدية. تبدآن بتفتيته بأصابعهما، وترفعان كل قطعة على حدة إلى فميهما. تتساءلان، وتلمّسان ذراعيهما مثل فريق من الأحصنة. في الواقع، إذا مررتَ بهما في الشارع تراهما وهما تجذبان صناديقهما من السوق إلى المستودع. كانتا تترجّلان دائماً، وتضعان أيديهما على خصريهما. كانت السجائر بين شفاههما. كانا يترجّلان، كما لو كانتا تقومان بتأدية رقصة البولكا. لديهما وقت عصيب. ليس لديهما غير نفسيهما للعناية بهما. لديهما طفل، عليهما رعائته، إضافة إلى رعاية الزوج، العجري الذي يحمل نظارة ذات أطر ذهبية. لديه شابٌ يُسرح شعره إلى أسفل، لم أراه يوماً دون كاميرا تتدلّى بين ذراعيه. يأخذ لهما صوراً كل يوم، يحدّد لهم موضعهم بدقة، ويقف في المقابل لالتقاط الصورة، بينما كانت العجريات تسرنَ إليه بابتساماتهنّ الصافية، لكنه لم يضع فيلماً، ولو مرّة في الكاميرا، والعجريات لم يرينَ ولو صورة لأنفسهنّ. فقط ظللنَ يأخذنَ الصور، وينتظرنَ مثلما ينتظر المسيحيون الجنة.

صدفتُ في أحد الأيام فتاتيّ العجرتين في الجانب الآخر في فلتافا؛ حيث يتأرجح جسر الحبّ فوق هولشوفيتسه. عندما كنتُ أتمشّي، لمحتُ شرطياً عجرياً، يرتدي قفازات بيضاء، ويحمل عصا مخطّطة موجّهاً إيّاها إلى العربات المازّة بالمنعطف، بالقرب من شارع شولر، كانت طريقتة في الوقوف هي البولكا، من أجل تغيير وجهة السيارات، كان ذا وقار، إلى درجة أنني توقفتُ؛ كي أشاهده وهو يكمل نصف الساعة المتبقية من دوامه ذلك اليوم، وفجأةً لمع وميض فيروزي أزرق، وغرقت عينا في بريق بنفسجي مخملي. ماذا رأيتُ عبر الشارع غير العجرتين اللتين انجذبتُ إليهما مثلما جذبتني نظرة العجري في زحمة المرور. الجميع يتسم بفخر إلى القمم التي أنجبت العجر. عندما انتهى دوامه، واجتاز الزحام من أجل

الوصول إلى وجهته، ذهب من أجل أن ينعم بمديح وتهاني رفاقه العجريين، وفي لحظة رأيتُ وميض الفيروز وبريق الشرائط اللامعة، وهي تنساب على حذائه المغبرّ. في البداية، ابتسم العجري، ولكنّ؛ سرعان ما غمرته الفرحة بنفسه، وشرع في الضحك، وقبّل كل الفتيات العجريات من حوله محتفلاً، بينما كان الفيروز الأزرق والبنفسج المخملي يلمعان على حذائه.

عندما أنهيتا الخبز والسلامي، أخذتا الفتات من تنويرتهما، وقامت بأكله، بعد ذلك، قامت العجرية الفيروزية بالتمدّد على ورقة، وقامت بعقد تنويرتها على خصرها. كيف تجيد تلك اللعبة، سيدي؟! قالت بحزم.

أريتها كفي وهي ملطّخة بالدماء

ليس اليوم، لديك ركبة رديئة. قلتُ

لم تبال، وقامت بإرجاع تنويرتها، حدّقتُ في كامل الوقت بعين لا ترفّ، عندما بدأت العجرية ذات الوميض المخملي بالقيام من مقعدها في آخر خطوة. وقفنا بانتعاش وقوّة، قامت بشدّ أشرعة المركب، وفجأة بعد مرورهما، قامت بوضع رأسيهما بين فخذيهما مثلما تطوى الأوراق، صارختان وداعاً، مسرعتان في اتّجاه الفناء. وسرعان ما بدأتُ بسماع خطواتهما تركض في ممشى بوّابة البولكا التي لا مثيل لها، تدفعان أكوام الورق المرمية تحت أوامر المصوّر الفوتوغرافي الذي سرح شعره بأناقة شديدة، والذي يرتدي نظارة بأطر ذهبية.

عدتُ إلى عملي، وشرعتُ في نقل الصناديق الملطّخة بالدماء، وعلب الكرتون وأوراق اللف حتّى ملأت المكان إلى السقف، عندما فرغ ثقب السقف، استطعتُ أن أنصتُ إلى جميع الأشياء في الساحة، كل شيء يقال هناك، كما لو كان يقال عبر مكبّر الصوت. أحد الرّجال جاء نحوي

عبر الفتحة، نظرتُ إليه من الأسفل، وإذا به ينظر إليّ كمن ينظر إلى تمثال في بؤابة الكنيسة. أما آلتِي؛ فقد كانت تنظر نحوهم، كما لو كانت تنظر إلى تابوت تشارلز الرابع مؤسس بلدنا. فجأة أخذ مكانهم مديري، يعصر كفيّهِ، ويهدر في وجهي بصوت مليء بالحقد:

. هانتا، ماذا يقول هؤلاء العرّافون، هؤلاء الدّجالون؟ ماذا يفعلون هنا مرّة أخرى؟

كان يرتعد كالعادة، جثمتُ على ركبة واحدة متمسكاً بالبرميل بيد واحدة، أنظر نحوه، أتساءل ماذا حلّ به؟ ماذا يحمل ضديّ؟ ما الذي صاغ وجهه المرعب، وجه الساخط، المليء بالمعاناة، ويجعلني دائماً أوّمن أنني شخص بغيض وعامل يائس، يوجّه مصائبه الدنيئة نحو رئيسه الرفيع؟

حملتُ نفسي من القاع مثلما فعل الجنود في لحظات رعبهم عندما اندفعت الصخرة التي تغطّي قبر المسيح الممدّد إلى الخارج في الهواء؛ لتحرّره. استجمعتُ قواي، نفضتُ الغبار عن ركبتي، وعدتُ إلى العمل. في ذلك الوقت، كان الذباب بكامل قوّته في الخارج، ربّما لأنني أحدثتُ ضجّة عبر مسح الثقب الذي في السقف بقطعة قماش، وعلى كل حال، قاموا بتكوين شجرة سميكة حولي وحول كفيّ، شجرة فراولة، أوراق من العليق... كانت مهمّة تفريقهم مثل عملية صياغة شارع عبر الأسلاك الشائكة. لكن؛ أن تُلطّخ بالدماء وبالعرق لم يكن حاجزاً أمامي؛ لأكمل عملي.

عندما كانت الغجريات معي، كان المسيح ولاوتره يقفان معاً في برميل آلتِي الهيدروليكية. الآن، عدتُ إلى وحدتي من جديد، بجراح صاغها الضباب والأسلاك الحديدية، لكنني عدتُ إلى أدواتي لمواصلة عملي الروتيني، رأيتُ المسيح كبطل تنس، فاز للتوّ ببطولة ويمبلدون لأول مرّة،

ولاوتزه كتاجر معوز. رأيتُ المسيح مستبشراً بحقيقة جسده. باللون الأحمر، وبالرموز، وبلاوتزه في نعشه. يشير إلى لوحة خشبية جاثمة. رأيتُ المسيح يرفع ذراعه الجبّارة؛ كي يدمّر أعداءه ولاوتزه يحرك ذراعيه مثل أجنحة مكسورة. رأيتُ المسيح عاشقاً، ولاوتزه كلاسيكياً. المسيح هو التدفق، ولاوتزه هو الجَزْر. المسيح هو الربيع، ولاوتزه هو الخريف. المسيح يجسّد حبّ الجارّ، ولاوتزه قَمّة الفراغ. المسيح هو التقدّم نحو المستقبل، ولاوتزه هو العودة إلى البدايات.

على كل حال، شرعتُ في ضغط الرِّزّ الأخضر والرِّزّ الأحمر، إلى أن رميتُ في النهاية حفنة من الأوراق الملطّخة بالدماء في البرميل، لاعناً الجَرار على حشر مستودعي بهذه المادة، وشاكراً إياه على جَلْب المسيح ولاوتزه معه. في آخر كومة، وضعتُ ميتافيزيقيا الأخلاق لكانط، بينما كان الذباب هائجاً، مهاجماً آخر القطع المتبقّية من الأوراق الجافّة بمثل تلك الشراهة، إلى درجة أنه لم ينتبه إلى البرميل وهو يتلعه مع بقية الأوراق المتساقطة في داخله؛ حيث كانت تسحقه، وتُفرّقه إلى غشاء وخلايا. قمتُ بزيادة سرعة النرد بالأسلاك، وأدرته. محاطاً بالذباب الميّت، والمصاب بالجنون. الذباب الأخضر أو الأزرق الفلزي يلمع فوق بقعة دم سوداء. كل كومة أشبه بقطعة لحم كبيرة، تتدلّى من خطّاف مستودع قروي لبيع اللحوم في ظهيرة شديدة الحرارة. نظرتُ إلى الأعلى، واكتشفتُ أن المسيح ولاوتزه قد رحلا من المدرج الأبيض مثل تنوّرة العجريات ذات الوميض القرمزي، نظرتُ إلى الأسفل، واكتشفتُ أن القنينة فارغة. تعثّرتُ بدرجات المدرج ثلاث مرّات. رأسي تدور بسرعة في عزلة صاحبة جداً. لم أستطع أن أتنقّس هواء نقياً حتّى وصلتُ إلى الزقاق الخلفي؛ لأستجمع قواي، وأمسك بالإبريق، بإحكام. كان الهواء يندفع، والشمس تشعّ بملوحة، وتغمي عينيّ. عندما كنتُ أمشي على طول جدار رعية الثالوث المقدّس، رأيتُ التناير

ذات اللون المخملي والقرمزي مرّة أخرى، كنّ يجلسنَ على لوحة، يدخنّ، ويتغامزنَ مع مجموعة من العمّال العجّر الذين كانوا يحفرون الشارع. كثير من العجّر يعملون في تهيئة الشوارع، هذا العمل مصدر رزقهم، لذلك تراهم يصبّون جام جهدهم وروحهم في هذا العمل، فأهدافهم في هذه الحياة هي ما تجعلهم منكبّين على العمل. أحبّ دائماً مشاهدتهم عُراة إلى الخصر، وهم منشغلون برفع المعاول، من أجل طرق الأرض الصلبة والحصى، كما لو كانوا يحفرون قبورهم.

أحبّهم؛ لأنهم يتركون زوجاتهم وأطفالهم بالقرب من مكان الأشغال، وفي وسع كل من يشعر بالحنين إلى ابنه أن يراه، فتشدّ العجّرية تنوّرتها، وتحمل عنه الفأس، وتتركه يداعب الطّفل على ركبتيه. الغريب في الأمر أنه يداعب الطّفل، كما لو كان يسعى إلى تجديد قوّته. قوّة روحه بقوّة عضلاته. العجّر أناس عاطفيون جداً، مثل مريم تشيكية جميلة تداعب المسيح الرضيع. لديهم عيون إنسانية كبيرة تُشعرك بالطمأنينة، وتعكس الحكمة والثقافة المنسية التي مضى عليها كثير من الوقت. عندما كنّا نركض والعصي بأيدينا، ونخفي عوراتنا، كان للعجّر دولتهم ونظامهم الاجتماعي الذي شهد انحدارن. عجر اليوم، الذين عاشوا في براغ لجيلين، يُشعلون النار المقدّسة أينما اشتغلوا، نار النورمانديين تستعر فقط من أجل الفرحة، بريق الخشب الخام المتآكل مثل ضحكة طفل، رمز الأبدية التي سبقت الفكر الإنساني، النار الحرّة، هديّة الجنّة، العلامة الحيّة لتلك العناصر اللامرئية من قبّل المشاة الذي يعانون من ضجرهم من العالم، النّار التي تستعر من براغ تُدفع أعين المشرّدين وأرواحهم.

العين، والروح والأيدي. عندما يحلّ البردُ. أفكّر في دخول حانة هسينسكي، ومشاهدة النادلة تسكب لترن من النيذ في إبريقي، وتقوم

بسَّكَب البقية على الطاولة؛ لأن الرغبة تسرَّب من الحافة. ولكنها مضت بسرعة؛ لأنني عندما دفعتُ في اليوم السابق، اندفع فأر من أكمامي، أو ربّما لأن يدي ملطّخة ببقع الدم، قمتُ بالترتيب على وجهي بيدي، عندي عادة الترتيب على وجهي بيد مفتوحة، لطّختُ جبهتي بالذباب المسحوق، ربّما لأنني صفعتُ نفسي من أجل الدفاع عن نفسي. على كل حال، أكملتُ طريقي في الرقاق أحفر في الدهن، رأيتُ التناير المخملية والبنفسجية وهي تلمع على الحائط أمام الثالوث المقدّس، أشاهد العجريات وهنَّ يحملنَّ آلة تصوير تلتقط ذقونهنَّ. عدتُ إلى الورا أنظر من عدسة الكاميرا، عليك أن تفعل ما بوسعك من أجل رسم ابتسامة جميلة على وجوه أشبه بمطبوعات تنفجر؛ لتحوّل إلى ابتسامات، وفي النهاية، ضغط على العدسة، وارتفعت كفه اليسرى كموجة، نقر على المصراع، وجذب الفيلم. رأيتُ الفتيات العجريات يُصقّقن مثل الأطفال، وهنَّ يتساءلن حول كيفية خلق صورة.

سحبتُ قبّعتي؛ لتُغطّي عينيّ، واجتزتُ الشارع؛ حيث يقف أستاذ الفلسفة ضائعا، نظّارته مغبرة، يقف موجّها إياها نحوي، كما لو كانا بندقية بماسورتين. كالعادة قام بتحريك كفه في جيبه، ثم أخرج ورقة نقدية بفئة ١٠ كرونات، وقدمها إلي قائلا:

- هل الرجل الصغير هنا؟

وعندما قلتُ إنه هنا، همس في أذني كالعادة:

- كن طيباً معه، هل تسمع؟

وعندما قلتُ له سأفعل ذلك، انزلق إلى الفناء عبر مدخل شارع بالينا، هرعْتُ إلى الخلف، وصرتُ أسفل الدرج عندما سمعته يمشي بتردد وهو

يسلك طريقه إلى الفناء، وينزل الدرج دون ضجيج، وعندما التقتُ أعيننا.  
تنهّد، وسألني:

. أين هو الرّجل العجوز؟

وكالعادة قلتُ:

. هو في مكان ما، يشرب البيرة

قال الأستاذ

. هل ما يزال يعاملك مثل حيوان؟

قلتُ كالعادة

. إنه غيور، غيور لأنني أصغره سنّاً.

قدّم لي أستاذ الفلسفة مرّة أخرى ورقة نقدية من فئة ١٠ كرونات، ضغط  
عليها في كفّي، وبصوت مرتعش قال:

. هذه لك؛ كي أساعدك على البحث. هل وجدت شيئاً ما؟

عدتُ إلى الصندوق، وجذبتُ بعض الصحف مثل «السياسة الوطنية»  
و«الأخبار الوطنية»، وكالعادة كانت فيها ملاحق حول المسرح، مقالات  
كتبها موريسلاف ريت وكارل إنجليمولر، قدّمتُ مُجمّلها إلى الأستاذ، تعودّ  
أن يشتغل في صحيفة «أخبار المسرح» حتّى وإن كان قد طُردَ من هيئة  
التحرير لأسباب سياسية، ما يزال لديه حنين إلى الملحق المسرحي منذ  
الثلاثينيات. نظر إليهم نظرة ثاقبة، ووضعهم بانتظام في حقيبته، وقال  
وداعاً، وعند هذه اللحظة، كالعادة، قدّم لي ورقة نقدية بفئة عشرة كرونات.  
ثمّ تابع سيره على الدرج، والتفت لي قائلاً:

- استمرّ في العمل، استمرّ في البحث. أنا لا أريد فقط أن أصدف  
الرّجل العجوز.

ثمّ أسرع في اتّجاه الباحة. وفي ذات اللحظة، كالعادة رميتُ قبّعتي  
خلفي، هرعْتُ إلى الرّفاق عبر الفناء، ووقفت أمام القديس تدوس،  
سقطتُ قبّعتي على حاجبي، وخيّمّت على وجهي نظرة متجهّمة. رأيتُ  
أستاذ الفلسفة وهو يتسلّل بجانب الجدار، رأيتُه مذعوراً، وكالعادة، قدّم  
لي ورقة نقدية من فئة عشرة كرونات، وقال:

- لا تكن متعصباً مع الرّجل العجوز، ما الذي تحمله ضدّه؟ ستكون  
مديناً له، ألا ترغب بذلك؟

عندها، كالعادة، أومأْتُ، بينما كان يغادر، لم يكن ذاهباً إلى ساحة  
تشارلز، كانت حقيبته تتدلّى خلفه، بينما كان ينعطف مع أوّل زاوية، كنتُ  
أعلم بما لا يدعو إلى الشكّ أنه في عجلة من أمره، من أجل تجاوز الرجل  
العجوز الذي يعامل مساعده الصغير كمّن يعامل قذارة ما.

رأيتُ الشاحنة ترجع في اتّجاه الباحة، لذلك عدتُ مباشرة إلى  
المستودع، ووقفتُ بجانب خمس عشرة كومة، جمعتها اليوم، جميعها  
مزينة بنسخ من أعمال بول غوغان مرقّطة بالدم، كانت لوحة بونجور سيد  
غوغان. كلها لامعة ومشرقة، كنتُ متأسّفاً لقدوم السائق باكراً. أمضيتُ  
كثيراً من الوقت مع اللوحات، كانت لها طبقات، كما لو كانت درجات  
سلّم، مشكلة خلفية مريكة مع الذباب النائم. لكنّ؛ كان هناك وجه السائق  
مائلاً على المصعد، لذلك حملتُ الكومة تلو الأخرى على الحاملة، أغدّي  
عينيّ بلوحة بونجور غوغان، حزيناً لرؤيتها وهي ترحل. ذلك لا يعني شيئاً،  
قلتُ لنفسني؛ لأنني عندما أتقاعدُ سأشتري آلتني. سأصوغ كل الأكوام التي



أرغب في ضغطها، حتى لو اشترى أحد ما أحد الأكوام الممضأة، حتى وإن كان أجنبياً، ولكن؛ لحظي، سأضع لها ألف مارك ألماني؛ لأبعدها عن الأعين الأجنبية الذين سيدفعون كثيراً، ثم يحملونها بعيداً، إلى درجة أنه لن يكون في وسعي زيارتها. وعموماً، الكومة تلو الكومة كانت تُسحب من الفناء، سمعتُ العامل وهو يلعن الذباب المحلّق على وجهه، وبالتأكيد، عندما تلاشت آخر كومة، تلاشى الذباب معها. ولكن؛ من دون الذباب، سكن الحزن فجأة المستودع، وغمّ عليه اليأس. زحفتُ على الدرج، شربتُ كأساً الثالثة، عليّ أن أتفاوض مع درجات السلالم، وأرى العامل وهو يضع آخر كومة في يدي السائق الذي يرتدي قفازات... عليّ أن أراه وهو يرفعها إلى الشاحنة راكلاً إيّاها، عليّ أن أرى ظهر العامل وهو ملطّخ بدماء الباتيك، أن أرى السائق وهو يمرّق قفازاته الدامية، ويرميها باشمئزاز، العامل يصعد بجانب السائق، وتختفي الأكوام من الباحة. كنتُ سعيداً بما تبقى من أعمال غوغان، وهي تمضي في شكل شرائح، أملاً أن كل من سيري الشاحنة وهي تمرّ سيسعدُ لمشاهدته. عندما غادرت الشاحنة، كانت الحشرات على قيد الحياة، تجوب شارع سبالينا متمسّسة، الذباب الأزرق والأخضر، الذباب الذهبي الذي كان مسجوناً مع عمل غوغان، في عربات كبيرة، مغمورة بالأحماض والفلز القلوي في رحي الأوراق؛ لأن ذلك الذباب البرّي يرفض الاستسلام، من أجل إبطال أن جمالية الحياة تتمثل في عظمة القاذورات، الممزوجة بالدم.

كنتُ على وشك العودة إلى القبو عندما جثم سيدي على ركبتيه أمامي بنظرة أشبه بنظرة شهيد، وشبك يديه قائلاً لي:

- أرجوك، هاتنا، من أجل الرّب، ارحمّ مشاعرك عندما يكون هناك وقت، وتوقّف عن سكب تلك الأباريق في حلقك. قمّ بعملك، وتوقّف عن تعذيبنا. ستكون أنت نهايتي، إذا واصلتَ على هذا المنوال.

كان يرتعش بينما كنتُ أنحني عليه ووقمتُ بالتريبت عليه عبر مرفقي بلطف قائلاً:

. خذْ نَفْسًا، سيّدي الجميل، ليس من الجيد أن ترقع.

وعندما ساعدته، شعرتُ بضجّة في كامل جسدي، سألتُه أن يصفح عنيّ دون أن أعلم السبب في ذلك، لكن؛ كان ذلك قدرتي، أن أطلب المغفرة، سبق وطلبتُ المغفرة من نفسي من حالي التي كُنْتُها، حياتي التي كانت عبارة عن يأس، مرهقة بالوحشة، سلكتُ طريقي إلى المستودع، واستلقيتُ على ظهري في فراغ، لم يزل يتدقُّاً عبر الفتحات العجريات اللواتي كنَّ يرتدينَ تنانير فيروزية. انحنيتُ مُنصتاً إلى ضجيج الشارع، الموسيقى المنبعثة من خرسانة الشارع الجميلة، تساقط قطرات الماء الملوّثة تجري عبر خمس قصص بُنيت فوقنا، إلى شبكة المرحاض تندفع، تُنصتُ إلى ما يجري في الأسفل، بوضوح تندفع المياه الملوّثة والبراز عبر المجاري، بعيداً عن السطح، الآن هُرْمَتْ جحافل الذباب، وأُجبرت على التراجع، الآن ثمة صرير أشبه بنواح وعزاء لجيشين من الفئران يتقاتلان عبر مجاري العاصمة، يتقاتلان من أجل العلوية على مجاري براغ. لا الجنّة إنسانية، ولا الحياة التي فوقنا، ولا حتّى التي تحتنا إنسانية... لا إنسانية في داخلي. بونجور، غوغان.

## الفصل الخامس



كل ما أراه في هذا العالم، يندفع إلى الأمام، ويتراجع في آن، كمنفاخ الحدّاد تماماً، مثل الأشياء التي مرّت بالتي، تعود إلى نقطة البدء عبر الرّزّ الأحمر والأخضر، وهذا ما يجعل العالم يدور. أجمع الأوراق المبعثرة منذ ٣٥ عاماً، العمل الذي يُكسبك تعليماً كلاسيكياً، وفي أفضل الحالات مستوى جامعيّاً، وكذلك شهادة إلهية؛ لأن في وظيفتي الشدّ والتدوير يأتيان معاً مثلما يأتي التقدّم مع المستقبل؛ ليلتقيا مع الماضي والأصل. أجزّب ذلك لأول مرّة. الحزن يغمر سعادتني بدروسي التي يعود الفضل فيها إلى الصدفة، أتأمّل التقدّم والمستقبل وهما يلتقيان مع الماضي والأصل، من أجل الراحة، بالطريقة نفسها التي يقرأ بها سكّان براغ أخبار المساء.

بالأمس دفنّا عمّي. كان الشاعر الذي علّمني كيف أنصب برج إشارة في حديقته، وأضع المسارات حول الأشجار، من أجل قاطرة أورنشتاين كوبر التي أعادها مع أصدقائه للعمل أيام السبت والأحد، من أجل تقديم فرصة ركوب السيارات المفخّمة، ثمّ يذهبان بمفردهما؛ ليحتسبا البيرة في الأباريق. بالأمس دفنّا عمّي، الذي أصابته جلطة دماغية في العمل، في برج الإشارة. كان ذلك في ذروة الصيف، وأصدقائه جميعهم في الغابة وعلى الأنهار. نام في برج الإشارة لمدة أسبوعين في الحرارة الشديدة قبل أن يجده أحد المهندسين مغطّى بالذباب والديدان، جسده يذوب فوق المشمّع كقطعة جبن عفنة. حفّار القبور أخذ ما وجده في ملابسه، ثمّ أتى؛ ليخبرني

بما حدث، ثمّ ذهبتُ من أجل أخذ المسحاة والمجرفة؛ كي أجمع فتاته من فوق السطح، مُحصّناً بزجاجة من النييد، قدّمها لي الحقّار. كنتُ متضرّعا وأنا أجمع بقاياها بلطف. شعره الأحمر كان أثقل شيء فوق المشمّع، كان مثل أشواك قنفذ مسحوق بشاحنة. كان عليّ أن أستعمل إزميلاً لجمعه. عندما انتهيتُ، قمتُ برمي ما تبقي منه في ملبسه التي رُميت في تابوته، لففتُ رأسه في قبّعة، وجدتها تتدلّى في برج الإشارة. وضعتُ مجلّداً لإيمانويل كانط في يده، فتحته على صفحة، تحمل نصّاً رائعاً، لم يخفق يوماً في دفعي "أمران يملآن نفسي بتساؤل متجدّد: السّماء المرصّعة بالنجوم من فوقي، و القانون الأخلاقي داخلي» ولكنني غيرتُ رأيي، قلبتُ الصفحة إلى كانط الصغير، ووجدتُ مقطعا آخر أشدّ روعة: "عندما تمتلئ ليالي الصيف المرتجفة بوهجها، وتمتلئ بوميض نجومها، ويكتمل بدرها، أغرق تدريجياً في مدينة الحساسية العالية التي أساسها الصداقة، وأزدري العالم والأبدية". فتحتُ خزانته، ووجدتُ بعض الخردة التي تعود أن يُرني إياها الوقت كله، ليس ذلك ما يهمني، تركيبة من المعادن من جميع الألوان الممكنة، صناديق مليئة، بقايا من النحاس والقصدير والحديد والعديد من المعادن الملوّنة. كان يسعى دائماً لوضعها على السكّة، بينما كان يؤدّي واجبه. كل مساء، عندما يعبر القطار، يأخذها، ويُنظّمها حسب الشفرات الأكثر وحشة التي صاروا إليها، يعطي كل قطعة اسماً مقترناً بشكلها، ولكل صندوق رسم خاصّ. مثل الذباب الآسيوي أو شوكولا النوعة الملفوفة في غلاف معدني. كنتُ أغرق تلك المعادن الثمينة في نعشه، أحمل الصندوق تلو الآخر. سمحتُ للقبار بأن يضع عليه الغطاء. هناك ينام عمّي، مغطّى بالمعادن، بالأوسمة، بالترائب، مزبناً مثل كبار الشخصيات، مثل الكومة البرونزية التي صغتها، وضغطتها.

لاحقاً، عدتُ إلى مستودعي، أزحف إلى أسفل الدرج بالعكس، كما لو

كنتُ أتسلّق السلم من العليّة، وبعد أن أنهيتُ زجاجة النيذ، وأخرى من البيرة. حفرتُ طريقي في اتجاه مجموعة من الورق اللاصق القذر، المليء بالجبن الذي صنعه الفئران. ثمّ شربتُ زجاجة بيرة أخرى، ورميتها في البرميل، امتلأت الممرّات بالفئران، جميع الأعشاش مليئة بالفئران؛ لأننا أغلقنا طيلة يومين من أجل تنظيف المستودع، من أجل الجرد. أغسل أكوام الكُتب كل مساء، ولم أكن أعلم ما الذي يحدث أسفلها، أسفل الكُتب والزهور والأوراق المتلاحمة في جبل من الأوراق والفضلات المتبقية في القمة، أضغطها بقناعة مثل آلي الهيدروليكية.

كما قلتُ، هو عملُ علماء اللاهوت؛ لأنه في القاعدة، أسفل الكومة، الاكتشاف الذي اكتشفته منذ ستة أشهر منذ آخر اكتشاف، الأوراق المرمية لُوثتُ، وأضحت أشبه بمستنقع، ترمي رائحة الجبن المتعفنة لأشهر في حجرة المؤن، تبحث عن غبي، كتلة من السيج الرمادي مع الشاي المغمّس في الخبز القديم.

عملتُ بكدّ في الليل، توقفتُ قليلاً، فقط لأذهب في رحلة قصيرة عبر الهواء، عندما رأيتُ خمس قصص مثل كانط الصغير في الليلة المقمرة. زحفتُ إلى الخلف على أربع، القنينة في فمي؛ كي أعود على ثلاث، القنينة في يدي، أعود إلى الخلف، كما لو كنتُ أتسلّق السلم إلى الأسفل.

هناك، على الطاولة تحت المصباح الكهربائي، نسختي من كتاب فكرة السماوات لإيمانويل كانط تنتظر، جلستُ أنتظر في الدرج، الكومة جلستُ معي في انتباه شديد. وذلك لأن اليوم كنتُ قد شرعتُ في جمع المئات من اللوحات الكبيرة، نسخ مغبرة بمفعول الرطوبة من لوحة عبّاد الشمس لفان جوخ، كل كومة من جانبي تشعّ ببريق ذهبي وبرتقالي مُشكّلة حقلاً من اللون الأزرق، تشعّ منها رائحة الفئران المتراصة في أعشاشها، ويُحتمل

أنها تشكّلت في شكل صفحة مسطّحة. وفي الوقت ذاته، ظلّ الوقت في عملية مدّ وجرّ، متناسقاً مع ضغطي على الرّزّ الأخضر أو الأحمر، تعلّمتُ من كتاب فكرة السماوات معنى الصمت، والصمت المطلق في الليل، وعندما تقع الحواسّ في خمول، قرأتُ عن تلك الروح الخالدة التي تتكلّم بلسان مجهول عن الأشياء التي يمكن اغتنامها دون أن تتمكن من وصفها. صُدمتُ من هذه الأسطر، كما لو كنتُ أركضُ في الهواء، وأحدّق في طريقي الذي يحملني تجاه السماء المرصّعة بالنجوم، عدتُ بعد ذلك؛ كي أفكّ الأوراق من الأسر، ورغم أن أيّ شخص في وسعه جمع الموائيق المهملة من أجل لقمة العيش، إلا أن ذلك العمل لا إنسانية فيه، وحصلتُ على شخص ما للقيام بذلك العمل. قتل الأطفال حديثي الولادة كما هو مبيّن من بيتر بروغل كان هو الكتاب الذي اختتمتُ به كل ما عندي من كُتُب في كومة الأسبوع الماضي. أما بالنسبة إلى جدليات فان جوخ والثور ذي العيون الصفراء والذهبية؛ قد كُتفت مزاجي المأساوي، ولكن؛ حتّى مع ذلك، ظللتُ أعمل وأصوغ مقابر للفئران، ثمّ أهرع مباشرة من أجل قراءة كتاب فكرة الجنّة، كان لذيذاً وطيب المذاق. كل جملة كانت أشبه بانخفاض إلى درجة سعال وامتلاء بشعور من الضخامة، والعظمة، شعور لانهائي.. يتدفّق الجمال في وجهي من كل جانب تحت سماء مرصّعة بالنجوم المطلّة عبر الفتحة التي في السقف من فوق، تحت حرب ضروس بين جيشين من الفئران، يخوضان حرباً في براغ داخل المجاري. وفي الوقت نفسه، وضعتُ عشرين كومة على الجدار، قافلة السيّارات في طريقها إلى المصعد، من أجل العمل، كل كومة مضاءة بعبّاد الشّمس، وما يزال هناك برميل بأكمله من الفئران المهروسة التي لم تسمح لها الفرصة أن تصرخ، مثل فئران اشتعلت من أجل متعة توم القط، تماماً مثل جيرري الذي أمسك به توم القطّ من أجل المتعة فحسب. الطبيعة الرحيمة أتت



بعد تدمير كل الشعور بالأمن، الرعب أكثر كثافة من الألم، يزورهم دائماً في لحظة الحقيقة. لم يتوقف يوماً عن إدهاشي، لكن؛ فجأة شعرتُ بجمال أن تحمل قوّة بقداستها؛ كي تظلّ مستقيماً بعد كل الذي رأيته وعشته عبر الروح والجسد، في عزلة صاحبة جداً، وتدرجياً وصلتُ إلى اكتشاف أن عملي اندفاع ومُضيّ في حقل لا متناه من السلطة المطلقة.

ظَلَّت المصاييح تشعّ بنورها عليّ، ضوء الأرزار الحمراء والخضراء ظلّ يحرك الحائك في عملية مدّ وجَرّ، وفي النهاية، وصلتُ إلى أسفل الكومة، مستعملاً قَدَمَيّ، مثل بناء يجرف الأوساخ، يضغط على الوحل، أشبهه ببطقة من الجير.

قمتُ بجمع الأخيرة، كانت مرمية بوحشية في البرميل. تخيلتُ نفسي عامل مجار ينظّف قاع قناة صرف منسية على أطراف المدينة. فتحتُ كتاب فكرة السماوات، ووضعتها في آخر كومة، وعندما قمتُ برمي الكومة مع الأسلاك، جاذباً إيّاها بالساندة، مديراً إيّاها المرّة تلو الأخرى. وقفتُ خطوة، وتركتُ ذراعيّ مُعلّقين بين ساقَيّ إلى الأرضية الإسمنتية الباردة. إحدى وعشرون زهرة عبّاد شمس تنير ظلمة المستودع، بعض الفئران ترتعش في بحث متواصل عن الورق، قدم فأر ما، وهجم عليّ، قفز على ساقه الخلفية، وحاول عضّي وإيلامي، مجهداً جسده الرقيق، يقفز على ساقه عاضاً كاعب ساقه، وكل مرّة أقوم بإبعاده بلطف، حاول أن يقذف نفسه في حذائي، في النهاية فقد من أنفاسه، ووقف في زاوية محدّفاً فيّ، مدقّفاً في عينيّ، وفي مرّة واحدة، بدأتُ بالارتعاش؛ لأنني في عين ذلك الفأر رأيتُ شيئاً آخر أعمق من الليالي المرصّعة بالنجوم أو القانون الأخلاقي في داخلي. مثل إشارة البرق لشوننهاور " الحبّ هو القانون الأعلى، الحبّ هو الشفقة" واكتشفت أن آرثر شوننهاور يكره الرجل القويّ،

وسعدتُ أن هيغل وشوبنهاور لم يكونا جيّشين متناحرين؛ لأنهما سيشتان الحرب نفسها التي سنّتها الفئران في مجاري براغ.

كنتُ شديد الحذر عندما وصلتُ إلى البيت، واستلقيتُ بجميع ملابسِي فوق الفراش، ممدّداً بالعرض تحت غطاء من الرفوف ما يقابل طنّين من الكتّاب، وعندما كان كل شيء على ما يرام. نظرتُ عبر الضوء القادم من الشارع وعبر الشقوق في الرفوف، وعندما خمد كل شيء في هدوء، بدأتُ في سماع أسنان الفئران، وهي تقضم شيئاً ما، سمعتها وهي تقضم كتّاباً في جنتي. أربّني صوت قضمها؛ لأنها كانت مرتبطة بالزمن قبل صياغتها لأعشاشها، وفي أشهر قليلة بعد أن صنع الفئران الأعشاش، وجدتُ مستوطنة، وبعد ذلك كوّنتُ قري، في تقدّم هندسي، كبير معها في سنة؛ لتؤسّس مدينة، مدينة الفئران في وسعها أن تقضم وتحفر عبر اللوح وفي الأشعة بكل مهارة قبل ذلك بكثير. نعم الزمن لم يكن بعيداً. لم يكن غير صوت مرتفع للمسمة عابرة لطنّين من الكتّاب؛ كي تأتي برأسي، وتتقمم منّي شر انتقام لتلك الأكوام التي سحقّت فيها فأرّين في داخلها. وعموماً، هناك أنامٌ، نصف نائم، مسكوناً بالقضم الذي يسري فوقِي، وكالمعتاد، عندما نمّتُ، انضمتُ إليّ فتاة غجرية، هادئة، فتاة صادقة، كانت حبيبتي التي عشقتها في شبابي واعتادت أن تنتظرنِي برجل متقدّمة مثل راقصة باليه ترقص في مركز واحد، فتاة جميلة، هي الجمال المنسي منذ زمن، أيام شبابي.

كان جسدها مغطى بالعرق وبرائحة كريم الشعر التي تغطّي أصابعِي عندما أربتُ على شعرها، ترتدي دائماً الثوب المغطى بالحساء وبقع صلصة اللحم في جبهتي، بقع من الكلس والسّوس في الظهر، بسبب جري اللوح الفاسد التي وجدته في الأنقاض في ظهري. قابلتها عندما بدأت

رحى الحرب في التوقف عندما كنتُ في طريقي إلى منزلي من منزل هوركي حيث أخذت القليل من البيرة. حضنتني، لذلك عدتُ إليها، وتحدثتُ معها، بينما كانت بين ذراعيّ، لكنها لم تحاول تجاوزي. مشتٌ خلفي، وعندما التقت عيناها بعينيها، قلتُ "حسناً، وداعاً، عليّ أن أذهب" لكنها قالت إنها تسير في الاتجاه نفسه، وعندما بلغتُ نهاية شارع لودميلا قلتُ "حسناً، وداعاً، عليّ أن أذهب إلى المنزل" وكانت تسير في الاتجاه نفسه، فأكملنا الطريق معاً، أكملتُ طريقي عمداً كنوع من التضحية جاعلاً يديّ في يديها، وقلتُ "عليّ أن أذهب إلى المنزل الآن". قالت بأنها تسير في الاتجاه نفسه، فأكملنا السير، أكملتُ السير في وجهتها مضحياً بكل شيء؛ كي أجعل يديّ في يديها. قلتُ يجب أن أكمل طريقي، من أجل الوصول إلى البيت الآن. وكانت تسير في الاتجاه نفسه، وأكملنا السير حتى وصلنا إلى شارع لودميلا، قلتُ لها إنني وصلتُ، وعليّ أن أقول لها وداعاً، وعندما توقفتُ عند عمود إنارة في عتبة البيت أمام الباب، قلتُ بأنها أقطن هنا. قالت بأنها تعيش هناك أيضاً، أغلقتُ الباب، وأمرتها بأن تسير أمامي، لكنها رفضتُ، وطلبتُ مني أن أسير أولاً. وبما أن الغرفة كانت مظلمة، نفذتُ أوامرها. هبطتُ من الدرج وصولاً إلى الباحة، إلى أن وصلتُ إلى باب غرفتي. قلتُ:

. حسناً، وداعاً... هذه هي غرفتي.

قالتُ بأنها كانت غرفتها، حينها تقدمتُ إليّ، وشاركتني فراشي، وعندما استيقظتُ من الفراش، لم يزل دפוؤها على الفراش، بينما غابتُ هي، لقد رحلت. لكن؛ في اليوم التالي، وطيلة الأيام التي تلتها، في لحظة وقوفي الباحة، أراها جالسة في عتبة الباب، وتستلقي بعض اللوحات البيضاء والأشعة مرئية تحت النافذة، وعندما أُغلق الباب، تقفز مثل

قطعة، وتركض في اتجاه غرفتي دون أن ينبس أحدنا بكلمة. ذهبْتُ لاحقاً؛ لأحضر بعض البيرة وزجاجة نبيذ بخمس لترات. كانت العجربة تُشعل فرن الحديد القديم الذي يشتعل بقوة حتى وإن كان الباب مفتوحاً؛ لأنَّ الغرفة كانت ذات يوم ورشة حدادة بسقف عال وموقد كبير، قامت لظهي عشاء من بطاطا الغولاش وسلامي الخيل، ثمَّ جلستُ قرب الموقد؛ كي تغذيها بالحطب، كانت شديدة الحرارة؛ إذ كان صدرها يلمع بأشعة ذهبية، وعرق ذهبي يغطي يديها ورقبتها، ويغيّر باستمرار من ملامحها، بينما كنتُ مستلقياً فوق الفراش فقط كي أحمَد عطشي بقنينة النبيذ قبل أن أحملها نحوها. أمسكتُ القنينة بكلتا يديها، وشربت بطريقة جعلتني أنصتُ لصرير تحرك حنجرتها، سمعتُ تنهّاداتها التي كانت أشبه بعملية ضحّ في المسافة. في البداية اعتقدتُ أنها وضعت الكثير من الخشب في النار؛ كي تنتصر عليّ، ولاحقاً اكتشفتُ أن النَّار كانت في داخلها. النار كانت في داخلها. هي لا تستطيع العيش بلا نار.

بذلك واصلنا العيش معاً حتى وإن لم أكن على علم باسمها، ولم تعلم اسمي، ولم ترغب في معرفته، ولا حتى في طلبه. صرنا نلتقي كل ليلة. حتى وإن كنتُ لا أقدم لها المفاتيح أحياناً، تطلُّ خارج البيت إلى منتصف الليل، ولكن؛ في اللحظة التي أُغلق فيها الباب، أرى ظلاً ينزلق، ثمَّ أراها هناك، تُشعل عود كبريت، تُضرم النار في بعض الأوراق، إلى أن تبدأ النار بالغمغمة والتوهج في الموقد الذي ظلّت تداوم على توفير كمّية من الخشب، تصلح لشهر مسبقاً. كانت تضعه تحت النافذة. في آخر المساء، عندما تناولنا العشاء الصامت. أشعلتُ المصباح؛ كي أراها وهي تقسم الخبز، كما لو كانت في مأدبة إلهية، تجمع الفتات من ملابسها، وتضعهم بوقار في النار.

قمنا لاحقاً بإطفاء المصابيح، واستلقينا على الظهر ناظرين إلى السقف؛ حيث رأينا وميضاً من ظلّ وضوء، والرحلة إلى القنينة فوق الطاولة كانت أشبه باجتياز مسبح مليء بالطحالب والنباتات البحريّة الأخرى، أو أشبه بعملية مطاردة في غابة من الخشب السميك في ليلة مقمرة. وكلّما سكرتُ، كنتُ أعود دائماً، وأنظر إلى العجربة العارية وهي مستلقية وهي تنظر إليّ. بياض عينيها يلمع في الظلمة، ننظر إلى بعضنا البعض في الظلمة أكثر ممّا ننظر إليها في النور. أنا أعشق الشفق دائماً، هي اللحظة الوحيدة التي أشعر فيها بأن شيئاً مهماً سيحدث. كل الأشياء كانت جميلة، وهي تستحم مع الشفق، كل الشوارع، كل الساحات، وكل الناس الذين يسيرون في اتجاه بعضهم البعض، حتّى وإن كنتُ أحمل شعوراً بأنني كنتُ شاباً وسيماً، أعشق النظر إلى نفسي من المرأة، أنظر إلى نفسي في زجاج المتاجر عندما أسير حتّى وإن لامست وجهي، لا أشعر بتجاعيد في فمي أو جبهتي. نعم مع المغيب يأتي الجمال.

بالقرب من باب الموقد وقفت العجربة عارية، وعندما مشتُ، رأيتُ جسدها يشعّ بهالة صفراء مثل الهالة التي تنبعث من أغناطيوس لويولا تشعّ على واجهة الكنيسة في ساحة تشارلي. عندما أضافت القليل من الخشب إلى النار، وعادتُ، واستلقتُ عليّ، مرّرتُ رأسها؛ كي ترى جسدي، وتحرّك أصابعها على أنفي وفمي. لم تُقبّلني يوماً، ولم أحاول أنا تقبيلها حتّى. قلنا كل شيء بأكفنا، واستلقينا هناك، ننظر إلى شرارة النيران، وإلى استعارها في موقد قديم. مُحدّقين في خصلات من الشعر تشعّ من خشب ميّت.

كلّما ما رغبتنا فيه هو أن نستمرّ في العيش إلى الأبد. كلّما لو أننا قلنا كل شيء لأنفسنا. كما لو أننا وُلدنا معاً، ولن نفرق أبداً. طيلة الخريف

السابق من الحرب العالمية الأولى اشتريتُ بعض أوراق اللّف زرقاء اللون، كرة من الخيوط والغراء، بينما ملأتُ العجربة كأسّي بالبيرة. أمضيتُ السبت كاملاً فوق السطح؛ كي أصنع طائرة ورقية، كنتُ أصممها بدقة، تجعلها تطير بخفة، أصوغ خيطاً طويلاً من الأوراق الرقيقة، وأثبتها في طائرة على شكل حمامة، تمسكها العجربة، بينما أظلُّ أراقبها. لاحقاً قمنا بإطلاق سراح الطائرة الورقية نحو الجنّة، وتركنا الحبل يُطلق أجنحته أيضاً بعض الوقت. جذبته مرّة أخرى، وقمتُ بجَرّه؛ كي يستوي في تحليقه، ووقفتُ ساكناً مُحدّقاً في السماء ناظراً إلى الحبل وهو يتماوج. كان المشهد مؤثراً بعجربة، تُسدل الستار على وجهها بعينها. تغطّي وجهها بعينها. عيناها واسعتان في ذهول. لاحقاً جلسنا، وقدمتُ الطائرة إليها، لكنها بكتُ، كما لو كانت تريد أن تحملها إلى الجنّة. كانت ترغب في أن تشعر بأنها ترتفع مثل مريم العذراء. لذلك وضعتُ يديّ على كتفيها، وقلتُ بأنه بفضل هذه اللحظة نحن معاً. لكنها قدّمتُ لي كرة من الخيوط، وجلسنا هناك، رأسها بين كتفيّ، وفجأة وقعتُ في داخلي فكرة أن أرسل إليها رسالة. أخذتُ الطائرة الورقية إلى العجربة، ولكن؛ مرّة أخرى تجمّدتُ في مكانها، وقالتُ بأنها ترغب في الطيران بعيداً معها، ولم ترني بعد ذلك مرّة أخرى. لذلك دفعتُ المقبض مع الخيوط إلى الأرض، مرّقتُ صفحة من مفكرتي، وربطتها بالحبل، وبما أن الخيوط قد رجعتُ إلى يديّ، شرعتُ في الصراخ، وتمدّ يديها بعد الرسالة، كما لو كانت ترتعش في طريقها إلى السماء. كلُّ هبة للريح تعبر عبر أصابعي إلى جسدي كاملاً. وحتى وإن كنتُ أشعر أن الرسالة في تواصل مع قَمّة الطائرة الورقية؛ لأن الطائرة الورقية فجأة تحوّلت إلى إله، وتحولتُ أنا إلى ابن الإله. وفجأة ارتجفتُ، وتحول الخيط إلى روح مقدّسة جعلت من الإنسان في تواصل، في حوار مع الإله. مرّة واحدة أطلقنا الطائرة الورقية أكثر من مرّة. جمعتُ العجربة

من قواها، وأخذت الخيوط، ارتعدت، كما كنتُ أرتعد في الرياح العاصفة. وحركت الخيوط على أصابعها، وبكتُ في حرقة.

في مساء ما، عدتُ إلى المنزل؛ لأكتشف أنها رحلت. أضأتُ الأنوار، ومشيتُ جيئةً وذهاباً في الشارع إلى الصباح، ولكنها لم تأت، لم يكن ذلك اليوم فحسب، بل الذي تلاه. لكنني بحثتُ عنها في أماكن أخرى. غجرتي الطفولية، بسيطة كقطعة خشب خضراء، كأنفاس الروح المقدسة. كل ما كانت ترغب فيه هو أن تُغذّي الموقد بقطع الخشب الكبيرة، باللوح السميك، جاءت به على ظهرها، كما لو كانت تحمل الصليب، حاملة بقاياها. كل ما كانت ترغب فيه هو أن تطهو بطاطا الغولاش مع سلامي الخيل، تُغذّي نارها بالخشب، وتطير طائرة الورق الخريفية.

قرأتُ أنها سقطتُ في قبضة الجستابو- البوليس النازي الألماني- مع مجموعة من الغجريات، وتمّ الرّجّ بهنّ في معسكر الاعتقال، حتّى وإن كنتُ قد أحرقتُ حتّى الموت في ميدانك، أو اختنقتُ في غرفة أوشفيتز بالغاز، ففي كلا الحالّين هي لم تأت. الجنّة ليست إنسانية، لكنني لم أزل موجوداً مع الزمن. انتظرتُها، وعندما أخفقتُ في العودة مع نهاية الحرب العالمية الأولى، أحرقتُ الطائرة الورقية.

في الخمسينيات، كان مستودعي مليئاً بالأدب النازي، ولم يكن هناك ما يثير متعتي غير سَخق أطنان من كُتُب النازية ومخطوطاتها، مئات وآلاف الصفحات مع صور ورجال سعداء، أطفال ونساء، شيوخ سعداء، عمّال سعداء، فلاحين بسطاء، رجال بسطاء من القوّات الخاصة، جنود بسطاء.

تلقيتُ ضربة قوية، بسبب امتلاء برميلي بهتلر. حاشيته تدخل دانزغ المحرّرة، هتلر يدخل وارسو المحرّرة، هتلر يدخل براغ المحرّرة، هتلر يدخل

بارس المحرّرة، هتلر في منزله، هتلر في احتفالات النصر، هتلر مع كلبه الراعي، هتلر يزور جيوشه في الجبهة، هتلر يفتش الجدار الأطلسي، هتلر في طريقه إلى مُدُن الشرق والغرب المحتلّة. هتلر يستلقي فوق خرائط العساكر. وكلّما سحقت رجالاً سعداء، نساء، أطفالاً، ازداد تفكيري بالعجربة التي لم تسعد يوماً. العجربة التي لم ترغب في شيء غير إطعام النار، وطهي البطاطس، وملء قنينتي بالبيرة، لا شيء غير تفتيت الخبز إلى رقاقت صغيرة، كما لو كانت في عشاء إلهي. وأن تنظر إلى فتحة الموقد، ذاهلة من حرارة النار وضجيجها، من موسيقى النار التي تعلّمناها منذ طفولتها، والتي حفظت الروابط المقدّسة مع أناسها. تركتُ جميع الآمي خلفي، وانتزعتُ ابتسامة حزينة من وجهها كعلامة لسعادة مثالية.

الآن أنا أستلقي في فراشي على ظهري، وفأر صغير جداً يسقط على صدري، سقط إلى الأرضية، هرع بحثاً عن النجدة تحت السرير. ربّما قدّمتُ منزلاً إلى بعض الفئران في حقيبتني وجيب معطفي أيضاً. رائحة المُعطّر في المرحاض تندفع من الباحة. نحن هنا من أجل القليل من الأمطار، قلتُ لنفسي، أنا دافئ، خارج العمل ودون بيرة، ولا أستطيع تحريك أصابعي. يومان وأنا أنظف المستودع، أدفع الثمن لبعض المخلوقات التي لا ترغب في شيء غير قرض بعض الكُتُب القديمة، والعيش في ثقب الأوراق الضائعة، أن تلد فئراناً آخرين في أعشاش دافئة، الفئران الصغيرة تُلّف في كرات تماماً، مثلما تُلّف العجربة نفسها، وتستلقي معي في الليالي الباردة. الجنّة ليست إنسانية، لقد نسيت الشفقة والحبّ.



## الفصل السادس



منذ خمس وثلاثين سنة وأنا أسحق الأوراق المهملة في آلي الهيدروليكية، منذ ٢٥ سنة وأنا أتشبت بفكرة أن لا طريق آخر لي. لكنني بدأتُ أسمع أنباء حول آلة أخرى في بابني، آلة ضغط كبيرة، تقوم بعمل عشرين آلة، وقال شهود عيان إنها تسحق أكواماً بوزن سبعمئة أو ثمانمئة باوند، تصلها الأكوام مباشرة من القطار عبر الرافعة الشوكية. قلتُ لنفسي «هذا أمر عليك رؤيته بأَمِّ عينيك، يا هاتتا... لقد حان وقت مكالمة لطيفة.

عندما وصلتُ إلى بابني، رأيت هيكلاً بلورياً هائلاً، بينما كان وقع الآلة يندفع عالياً، كنتُ مرتعداً، ولا أستطيع النظر إلى الآلة. فقط جلستُ هناك، وأدرتُ رأسي جانباً، أتخبّط في خيط حدائي ... أفعل كل شيء؛ كي لا يقع بصري على الآلة؛ كي أنظر في كمّية من الأوراق المرمية، وأن أجد الشوك ولوحات كتاب نادر، كان دائماً علاجاً استثنائياً بالنسبة إليّ. بدل أن أذهب خلفها في المحلّ. سأخذ جانباً من الصوف الصلب، وأفرك العود جيّداً، ثم أنظر مرّة أخرى، سأرفعها حتّى وإن كانت ترتعد في كفيّ مثل باقة عروس في الهيكل. كانت هذه هي الطريقة في الأيام الخوالي أيضاً، عندما لعبتُ الكرة مع فريق قروي. علمتُ أن التشكيلة لن يتمّ اختيارها في حانة لوار حتّى يوم الخميس، لكنني سأذهب إليهم يوم الأربعاء. قلبي ينبض بقوة، بينما أنا أقف هناك منفرج الساقين بجانب درّاجتي مُحدّقا في اللوحة ذاتها. القفل، الخزانة البلّورية. لم يكن في وسعي النظر مباشرة

في الإشعار، ثم قرأتُ اسم نادينا حرفاً بعد آخر، ثم نظرتُ مباشرة إلى التشكيلة، ولكن؛ بما أنه كان يوم الأربعاء ما تزال تشكيلة الأسبوع الماضي هي نفسها، لذلك غادرتُ؛ لأعود في اليوم الموالي؛ حيث سأقف كالعادة بجانب درّاجتي مُحدّثاً في كل شيء ما عدا التشكيلة، ومرة واحدة سأعتني بنفسي، سأقرأ بتأنّ تشكيلة الفريق الأول، وتدريباً أقرأ تشكيلة الفريق الثاني، وبأناة سأقرأ تشكيلة فريق الشباب إلى أن أجد اسمي ضمن بنك الاحتياط، عندها لا أعلم إذا كنتُ سعيداً مرةً أخرى.

أقف أمام آلة الضغط الهائلة في بابني، وعندي الشعور نفسه، بداية صدمة، تحكّمتُ في نفسي، وحدّقتُ في الآلة التي ترتفع إلى السقف البلّوري مثل هيكل القديس نيكولاس في براغ. كانت أكبر حتى ممّا توقّعتُ، كانت بحزام توصيل طويل وعريض تماماً مثل الحزام الذي يرمي الفحم تحت حاجز محطة هولشوفيتسه، ولكن الذي كان يمضي نحوها ببطء كان مجموعة من الكُتب، يضعها عمال صغار السنّ، يرتدون أزياء مختلفة عن التي ارتديتها أو يرتديها غيري في أثناء العمل: كانوا يرتدون قفّازات وردية وزرقاء مع قبّعات بيسبول أمريكية، ورداءٌ يغطّي كامل الصدر، وحمالتي بنظلون تمايل على الكتف، وتلتقي على الظهر، وتخفي أقمصتهم بضراعها المخفية.

هنا أنا أرى ضوء المصباح: ضوء الشمس يتدفّق عبر الحيطان البلّورية وسقف البلّور. السقف لديه نظام تهوية يعمل. كانت القفّازات تُزعجني. كنتُ دائماً أشتغل من دونها، أعشق مشاعر الورق وهو يتسرّب بين أصابعي، لكن؛ لا يوجد أحد هنا لديه رغبة ولو قليلة؛ كي يجرب ملامسة الأوراق المتسخة. كان حزام التوصيل يدفع الكُتب مع قصاصات متنوّعة من الأوراق البيضاء، تماماً كما لو أن مدرج ساحة فاتسلاف يدفع الناس

إلى الشارع. الأوراق تندفع مباشرة إلى البرميل، برميل كبير مثل مرجل، يُستعمل لتخمير بيرة سميتشوف. وعندما يمتلئ البرميل، يتوقف الحزام بنفسه، وشيء أشبه بمروحة يندفع من السقف يكرّس كامل قواه باتجاه الورق، وبشخير رائع يعود إلى السقف؛ حيث تتلعثم على الكتّاب، وتصوغ منها إيقاعاً، وترمي بها في برميل حادّ وكبير أشبه بنافورة تجثم في ساحة شارلي.

الآن هدأت من روعي بما يكفي؛ لأرى أن الآلة تضغط وتعلّب كلّ حمولات الكتّاب، وعبر الحائط الزجاجي أستطيع رؤية الشاحنات وهي تدفع صناديق الكتّاب مُكدّسة إلى الحافة. كلّ الكتّاب تمرّ مباشرة نحو السّحق قبل أن تلوّث صفحة واحدة بعين الإنسان، أو عقله، أو ربّما قلبه. كلّ ما أراه الآن عملة بجانب حزام التوصيل يمرّقون الصناديق، ويحملون الكتّاب العذراء، يمرّقون أغلفتها، ويرمون الجوانب العارية على حزام التوصيل، لا يبالون بأية صفحة يُسقطونها عليها: لا أحد يُحدّق فيهم، لا أحد يحلم ولو بنظرة تجاهها؛ لأنني إن كنتُ أوقف آلتى كامل الوقت، فهم دائماً ما يملؤونها، ويتركون الحزام ممتلئاً، وهو يعمل.

كان ذلك عملاً لا إنسانياً، عملهم الذين يقومون به في بابني، كان أشبه بعمل في سفينة صيد، عندما تلوح الشباك، ويقوم الصيادون بفرز الأسماك من الأسماك الصغيرة إلى الأسماك الكبيرة، يدفونها في الأحزمة، ويجعلونها تعبر مباشرة نحو آلة التعليب داخل أحشاء السفينة: سمكة خلف أخرى، كتاب خلف آخر.

استجمعتُ قواي، تسلّقتُ بعض الدرجات في اتجاه المنصّة الممتدّة على البرميل. عندما مشيتُ عبرها، تخيلتُ نفسي في غرفة سميتشوف لتخمير البيرة؛ حيث يقومون بتخمير خمسمئة هيكتولتر من البيرة كلّ مرّة،

وفي الطابق الثاني، يقومون بوضع سقالة لمنزل تحت الترميم. نظرتُ إلى الأسفل، ورأيتُ لوحة تحكّم بأزرارها الملوّنة، بينما كان المحركُ يدهس ما يوجد في البرميل بالطريقة نفسها التي تدهس بها أنتُ تذكرة بين أصابعك دون أن تشعر بذلك. كنتُ خائفاً وأنا أنظر إلى هذا الطريق وذاك، وما رأيتهُ كان مجموعة من العملة يستحمّون في شمس الجدار البلّوري، ملابسهم وأقمصتهم وقبّعاتهم ضاعت في عريضة اللون، كانوا مثل طيور غريبة، مثل طيور القاوند، مثل عصافير الدغناش النرويجية، مثل بيغاوات. لكن؛ لم يكن ذلك ما أخافني. ما أخافني أنني فجأة علمتُ شيئاً مؤكّداً أن آلة عملاقة أمامي كانت تبعث ضجيج آلات صغيرة. رأيتُ أن ذلك يعني عهداً جديداً في اختصاصي، أن هؤلاء الأشخاص كانوا مختلفين، وعاداتهم أيضاً مختلفة. رحلوا حيث ترمى أيام الفرخ الصغير والاكتشافات والكتب، بلا قصد. هؤلاء الناس يقدّمون طريقة جديدة في التفكير حتّى وإن أخذ كل منهم كتاباً مع كل عملية طبع أجراً على مجهودهم، لن يكون ثمّة فرق. ستظلّ تلك نقطة نهايتنا، الحارس القديم لأننا جميعنا تعلّمنا عن غير قصد. كلّ منّا لديه مكتبة لاثقة في منزله عليه إنقاذها. وكل منّا يقرأ تلك الكتب في منتهى السعادة، والأمل في تغيير شيء ما من حياته. لكن أكبر صدمة كانت عندما رأيتُ العمّال الشبان يشربون الحليب والمشروبات الغازية، وتتسرّب إلى سيقانهم، وأكفهم إلى الخلف، مستقيمة في اتجاه القنينة. لاحقاً علمتُ أن الأيام الجميلة أتت إلى نقطة نهايتها، الأيام التي كان فيها عامل يزيح الورق المهمل بنفسه، يجثم على ركبتيه في قتال الواحد للواحد، وينتهي كل يوم أكثر قذارة، ومنهكاً من مجهوده.

كان جيلاً جديداً من رجال جدد وطرق جديدة، أن تفكّر في شرب الحليب في أثناء العمل، حتّى البقرة تُفضّل الموت عطشاً على أن تلامس قطرة من تلك الأشياء.

لم أستطع الاحتمال أكثر، لذلك أحطتُ بالآلة؛ كي آخذ نظرة على غلال العامل المشرف عليها. كومة وحيدة هائلة بحجم قبر عائلة غنية، بحجم حافظة نقود فيرتهايم. رأيتها وهي تهبط إلى منصّة الرفاعة الشوكية الشبيهة بحرباء. الرفاعة التي تبسط طريقها على الجوانب؛ كي ترسم منحدرًا، يُحمل مباشرة إلى سيّارة الشحن. وضعتُ رأسي بين يديّ. يديّ إنسان متّسختين، بسبب العمل، بأصابعهما المتشابكة مثل الكروم. لكن؛ مع الوقت أسقط مشمئزًا وأنا أشاهد ذراعَيّ تتدليّان من كتفيّ.

حلّ بعد ذلك موعد الاستراحة، وتوقّف حزام التوصيل، بينما جلس العمّال تحت لوحة كبيرة مجهّزة بكلّ أنواع الإعلانات والنصائح المعلّقة. أخذ كلُّ عامل زجاجة من الحليب، وقام بتناول وجبته المقدّمة من النساء المشرفات على الغداء. عندما كانوا جالسين هناك، كانت جلساتهم مؤنّثة بضحكاتهم وهمساتهم، بينما كانوا يقتسمون السلامي والجبن ولفائف الزبدة مع الحليب والمشروبات الغازية.

وقفتُ متشبّثًا بالعمود الحديدي، يتملّكني خوف من إيقاعي في نوع من المحادثات التي تتتابني. غادرتُ لوجود فرقة من الحزب الاجتماعي. كلُّ جمعة يرسل المصنع حافلة من أجل إيصالهم إلى مصنع شالي في جبال كرك نوشي، في آخر سنة ذهبوا إلى جولة في فرنسا وإيطاليا، وفي هذه السنة، كانوا في بلغاريا واليونان. قبل رؤيتهم وهم يجمعون الأسماء من أجل جولة في البلقان، ويأمرون بالإمضاء واحداً بواحد، لم أكن متفاجأ جداً وأنا أراهم نصف عراة وهم يستغلّون أشعة الشمس، أنا الآن في الأعلى، أسمعهم وهم يتبادلون الحديث حول تمضية ما تبقى من المساء، مُمرّقين بين خيار اللعب بجانب النهر، والانغماس في لعبة كرة قَدَم.

عطلتهم في اليونان قادتني إلى الوقوع في صدمة حقيقية: حلمتُ

بنفسي في اليونان عبر قراءتي لهردر وهيغل، كَوْنْتُ مفهوماً محدوداً حول العالم بقراءتي لفريديك نيتشه، لكنني لم أكن يوماً في عطفة. قضيتُ عمري في خسراني وإهمال وقتي. يخضم لي مدير العمل يومين من العمل مع كلِّ غياب دون عذر.

كنتُ أعمل من أجل أجرٍ إضافي؛ لأنني كنتُ دائماً في المؤخِّرة، كان هناك دائماً كمِّيَّة من الأوراق في كلِّ من المستودع والباحة، الكثير من الأوراق التي تعذَّر عليَّ الوصول إليها.

منذ خمس وثلاثين سنة عشتُ معها وعبرها، في مركب سيزيف اليوم، نوع من العمل الذي تراءى لي عبر السادة سارتر وكامو خصوصاً. كلِّما خَرَجْتُ أكوام الكُتُب من باحتي أتى ضعفها؛ ليملاً مستودعي؛ حيث كانت فرقة الحزب الاجتماعي في بابني في الموعد دائماً. الآن عادوا إلى العمل، بسمرة جميلة، أضفت عليها الشمس عمقاً على مسحة أجسادهم الإغريقية رغم تعبهم. لم يكونوا حزينين في فكرة الذهاب إلى اليونان مع عدم علمهم المسبق بأرسطو أو أفلاطون أو حتَّى غوته. ذلك هو الامتداد لليونان القديمة، لذلك ذهبوا فقط للعمل، ينزعون أغلفة الكُتُب، ويقذفون الصفحات المعذبة فوق حزام التوصيل، بهدوء تام ولامبالاة، دون أدنى إحساس بما قد يعنيه الكتاب. لا فكرة حول أن شخصاً ما في وسعه أن يؤلِّف كتاباً، وأنَّ شخصاً ما عليه مراجعته، وشخص ما عليه تصميمه، وشخص ما عليه بناؤه، وشخص ما عليه التدقيق في ملامحه، وشخص ما عليه تصحيحه، وشخص ما عليه أن يقرأ لوحة البيانات، وشخص آخر عليه أن يدقِّق في بياناته وطباعته، وشخص ما عليه أن يشدَّ الصفحات إلى بعضها بعضاً، وشخص ما عليه أن يضع الكُتُب في صناديق، وشخص آخر عليه القيام بحسابات، وشخص ما عليه أن يحكم أن الكتاب غير مؤهَّل للقراءة.



وشخص آخر عليه أن يأمر القارئ من أجل أن يجد للكتاب معنى، وشخص آخر عليه أن يضع الكتاب في مخزن، وشخص ما عليه أن يضع الكُتُب في عربة، وشخص عليه أن يقود العربة هنا؛ حيث يرتدي العمّال قفّازات برتقالية وزرقاء باهتة، تمرّق أحشاء الكُتُب، وتدفنها في حزام التوصيل التي تمرّق الصفحات بصمت، وترميها في الآلة العملاقة، وتصنع منها أكواماً من الكُتُب، تذهب إلى معمل الورق؛ لتصير أصدق؛ لتصير صفحات بيضاء لا غير، أوراقاً طاهرة خالية من أي حرف، صفحات ستصبح في النهاية روح كتاب آخر.

عندما جلستُ هناك، منحياً على الدرابزين مُحدّقاً في سير العمل تحتي. مجموعة من الأطفال مع أستاذهم يظهر مع ضوء الشمس، في رحلة مدرسية. رأيتُ أن تلك كانت فرصة للأطفال من أجل رؤية كيفية تمزيق الورق. أخذ الأستاذ كتاباً، وطلب من تلامذته الانتباه، وجسّد لهم كيفية تمزيق كتاب إلى أشلاء قبل أن يأخذ التلاميذ جميعهم كُتُباً، يرتدون سترات متّسخة، ويبدوون بتمزيق الكُتُب. ولكن ذلك لم يمنع الكُتُب من المقاومة. كان ذلك بمفعول أصابعهم الصغيرة التي سمحت للكُتُب بالمقاومة. ولكن؛ في النهاية، فازت أصابعهم. وتدرجياً صقلت جبهاتهم وعملهم في آن. كان للأمواج تأثير في ذلك من أعلى الجسر، حدث ذلك دون عقد. دُكرني ذلك بفترة زيارتي لمزرعة الدواجن؛ حيث رأيتُ فتيات يسحبن أحشاء الدجاج المعلق مباشرة في حزام التوصيل، يشتغلن بتناسق مع الأطفال الذين يمرّقون أحشاء الكُتُب، يدفنون أكبادها، رثتها، ويرمون قلبها في أسطل لاثقة، بينما يدفع حزام التوصيل الدجاج المرتعش من أجل مزيد من المعالجة. وما صدمني أكثر تلك السعادة التي بانّت على أوجه الفتيات في لابوس، وهنّ يتعاملن مع آلاف الأقفاص. كل قفص يضمّ عشر دجاجات إضافة إلى بعض الطيور الفارة التي تهادى حول سجونها،

ولا تفكّر في الهروب بعيداً عن السنّانير التي تنتظرها على جبل التوصيل. وعلى كل حال، علّم الأطفال أن يمرّقوا الكُتُب إلى أشلاء، وهم يُظهرون حماسة، إلى درجة أن طفلاً أو بنتاً يعذبّان أصابعهم الرّقيقة من أجل تمزيق أغلفة الكُتُب المتّسخة التي أعلنت ثورتها، ورفضت الاستسلام. وعندما كان أساتذتهم يضمّدون جراحهما، قدم بعض العملة من أجل الإنقاذ. يُريقون أحشاء الكُتُب المتمرّدة، ويرمونها فوق حزام التّوصيل، وينفضون الغبار عن معاصمهم. ربّما تكون الجنّة بعيدة عمّا هو إنساني؛ لأنها تحمل كل ما سعيت إلى امتلاكه.

عدتُ إلى وجهتي، نزلتُ الدّرج، وكنتُ في طريقي إلى سماع صوت ينادي "هاي هانتا، لقد أمضيت حياتك وحيداً، ماذا انتزعتُ منك الآلة الجديدة؟" عدتُ إلى الخلف، ورأيتُ رجلاً شاباً، يرتدي قبعة بيسبول يقف أمام الشمس بجانب الدرابزين حاملاً علبة حليب، تتملّكه نظرة تكلفُ تماماً مثل نظرة تمثال الحرّية. كان يضحك، ويحركُ الرّجاجة. اكتشفتُ أنه كان على علم بما أكون أنا. كنتُ حائراً من شعوري بالافتتان بالآلة الجديدة. والآن أصبحوا يضحكون ويلوّحون بقفازاتهم الزرقاء في الهواء. وضعتُ رأسي بين يدي، وهرعتُ باتجاه غرفتي، بعيداً عن ضحكاتهم الصاخبة، هرعتُ سالكاً آلاف صناديق الكُتُب. آلاف الكُتُب تركض إلى الخلف، وترنّج إلى الأمام. وقفتُ في نهايتها، أصارع من أجل فتح ولو صندوق من الكُتُب. وما رأيته كان مشهداً مكرّراً، أطفال يُمرّقون الكُتُب إلى أشلاء، الكُتُب التي ثارت لنفسها في أصابع الأطفال. كانت حرباً مسبقة، رواية مغامرات ليافعين. دفعتُ أحد الكُتُب، ونظرتُ إلى آخر صفحة، وهناك قرأتُ أنّ ٨٥ ألف نسخة طُبعت، وبما أنّ هناك ثلاثة مجلّدات، وأن ربع مليون من الكُتُب ستشنّ حرباً ضروساً مع أصابع الأطفال. وعندما سلكتُ الرّواق، آلاف الكُتُب الصامته ومنخورة القوى مرّت بجانبني مثل الدجاج المكسور في

أقفاص الجرارين في لابوس، الدجاج الذي تهادى ونقر للحظات، وكان دائماً في قبضة فتيات اللواتي علّقنها في سنانير حزام التوصيل، وهكذا تمّت إداثتهم تماماً كالكتّاب المكذّبة في الرّفاق، وتمّ الرّجّ بهم في قبر طريّ.

كنتُ سأسافر إلى اليونان، قلتُ لنفسي، قمتُ بالهجّ إلى أسطاغيرا، مكان ولادة أرسطو. ركضتُ في أنحاء الأولمب، ركضتُ بملابسي الدّاخلية بسرّوالم جينز، وحذاء ربطتُ خيطه بكاحلي على شرف بطل الأولمب. إذا توقّرتُ لي فرصة الذهاب إلى اليونان، سأذهب مع فرقة الحزب الاجتماعي. قدّمتُ لهم محاضرة حول الفلسفة والهندسة. علّمتهم طرق الانتحار. حضرتُ حول ديموستينيس، أفلاطون وسقراط. إذا توقّرتُ لي فرصة الذهاب إلى اليونان مع فرقة الحزب الاجتماعي. لكنهم يتمنون إلى عهد جديد، إلى عالم جديد. كلُّ شيء تغيّر الآن. تراودني هذه الأفكار، أمشي كي أكمل خطواتي في اتّجاه مستودعي؛ كي أغوص في ظلمته مكملاً واجباتي. أبدأ بالتّربيت على البرميل الذي يلمع، على الخشب المشوّه ريشاً أسمع صرخة، هديراً كئيباً. ثمّ أعود إلى الخلف؛ كي أجد سيّدي وهو يحدّق فيّ بعين دامية. رامياً شتائمه وغضبه حول سبب غيابي الطويل، عن مستودعي وباحته التي تعجّ بالأوراق مرّة أخرى، ولكنني لم أع ما قاله، شعرتُ بكمّ كبير من الحقارة يجتاحني، وكم كان شديد الغضب معي؛ لأنّه ظلّ يخاطبني باسم لم يتجرّأ أحد بمناداتي به: المغفل، نعم، المغفل.

عملتُ نصف اليوم دون راحة، فركتُ الصحف في البرميل، كما لو كانت فوق حزام التوصيل في بابني، وكلّما ارتعشت الكتّاب الممرّقة في كفيّ، مرّقتها مردّداً لنفسي: لا، لا يجب عليك تمزيق ولو كتاب واحد. كنّ باردا كجلاد كوري. اشتغل كما لو كنتُ أجرف كومة من أشياء لا قيمة لا، اشتغلت الآلة معي. تبصق وترتعش، محرّكها ترتفع حرارته؛ لأنّه لم يكن

معدّلاً على أية درجة حرارة، وكان أغلب الوقت مزدحماً ومرتوباً نتيجة بهواء المستودع. عندما شعرتُ بالعطش، ركضتُ جيئةً وذهاباً حاملاً معي علبة حليب. وكلّما ارتشفتُ منها، كانت كل قطرة أشبه بسلك شائك. لم أتوقّف، ارتشفتُها كاملة مرّةً واحدة. بالطريقة نفسها التي آخذ فيها زيت سمك القد مثل كطفل. وعلى أيّ حال. كان الحليب مرّوعاً، إلى درجة أنني ظللتُ ساعتين من أجل أن أبعد الأوراق عن فتحة المستودع مرّةً أخرى، وكان لذلك أهميّة كبرى بما أن اليوم خميس.

كنتُ كلّ يوم خميس أنتظر بتوتّر شديد مدير مكتبة كومينيوس للقيام بزيارته، وبالتأكيد سيأتي، ويظلّ واقفاً على فتحة المستودع حاملاً سلّة مليئة بفلسفة الرفض. ولكن؛ عندما أفرغها، لم أقم بأخذ كتاب من الكُتب التي تساقطت بين قدَمَيّ. أرحتها مباشرة، ورميتها في البرميل حتّى وإن لم أتبه عندما ينشرح قلبي، وأنا أنظر إلى كتاب ميتافيزيقيا الأخلاق، وهي تغرق في كمّ الفضلات. واصلتُ عملي، كنتُ أقوم بصنع الكومة خلف الأخرى. لا رسالة حولي الآن، الكومة هي كومة. أفعل فقط ما من خلاله أجنبي المال. أيامي الفانية انتهت، واكتشفتُ أنني إذا فعلتُ ما توجّب علي فقط فعله في وسعي أن أكون رجلاً من رجال كتيبة الحزب الاجتماعي، وإذا قمتُ برّفّع دخلي بـ ٥٠ بالمائة سيكون لي فرصة العمل في معمل الشاليه في الجبال، والأكثر أهميّة أنه سأحصل على عطلة في اليونان الرائعة. بلغة أخرى، هي فرصة من أجل أن أركض حول مسار الأولمب، وأن أصبّ احترامي لأرسطو في أسطاغيرا.

ظللتُ أشرب الحليب، وأعمل، وأعمل بلا إنسانية، بلا إحساس، بقوة العمل ذاته في معمل بابني. وفي المساء عندما أنتهي وأكون قد أثبتتُ أنني لم أكن مغفلاً بعد كلّ الذي حدث، يصرخ مديري، بينما يقوم بالاستحمام

في المرافق خلف المكتب دون حاجته إلى أن يمضي ما تبقى من وقته في صبّ غضبه عليّ، بل سأرسل رسالة إلى كوادر العمل قائلاً لهم بأن يتعاملوا معي كما يجب.

جلستُ هناك للحظات، مُنصتاً إلى المدير وهو يجفّف نفسه بمنشفته. حينها، كان ثمة موجة من الحنين تجتاحني إلى مانسا التي كتبتُ لي عديد المرّات داعية إياي إلى حيث تعيش الآن بالقرب من كلانوفيس. لذلك وضعتُ جوربين فوق قدَميّ القدرتين، وأسرعْتُ من أجل أخذ الحافلة. كان الظلام سيخيّم، وسأفوّتُ عليّ الحافلة. وجدتُ شخصاً أخبرني عن عنوانها، وسرعان ما وجدتُ نفسي أقف أمام كوخ في غابة. كانت الشمس تغرق خلفه. لكنني عندما فتحتُ الباب، لم أجد أحداً في الصالة أو المطبخ أو في أي غرفة من الغرف. لذلك رجعتُ إلى الحديقة، وهناك صُعدتُ أكثر من حالي تلك في بابني.

هناك، خلف أشجار الصنوبر المنتشرة وتحت وميض السماء، يقف تمثال هائل لملاك، كبير مثل نصب تشيك في براغ، أمام التمثال كان هناك سلّم. وعلى السلّم كان هناك رجل عجوز في ثوب أزرق فاتح، مجموعة من البطّ الأبيض، امرأة جميلة تطلّ برأسها من خلف صخرة حاملة مطرقة. أو ربّما كان رأس شخص، لا هو برجل، ولا هو بامرأة. وجه خنثوي لجندي من جنود السماوات. رأيتُه وهو ينظر إلى الأسفل، ولاحقاً كان ينظر إلى امرأة تجلس قبّالته، وهي تشمّ وردة. رأيتُه وهو يُغيّر ملامحه في اتّجاه صخرة بإزميل. كانت تلك المرأة مانسا. مانسا لديها شعر رمادي الآن، إحدى عينيها كانت منخفضة عن الأخرى؛ ممّا أسند إليها نظرة فارقة. كانت تبدو حواء نوعاً ما. لم يكن ذلك لأن لها نظرة سيئة، بل لأن إحدى عينيها كانت تغرق كلّما حدّقتُ خلف عتبة الأبدية، كما لو كانت تنظر

إلى مثلث متساوي الأضلاع؛ لتغرق في داخل مركز الوجود بثوب وجودية كاثوليكية. عينها المختلة ترمز إلى عيب الماس الأبدي.

على أي حال، جلست هناك مشدوهاً، وما فاجأني أكثر كان ذلك التمثال ذا الجناحين الكبيرين اللذين كانا أشبه بخزانتين كبيرتين. كانا يتحركان، الجناحان وكل ما حولهما. كانت مانسا تظهر وهي تُحرك جناحيها بعد التحليق، أو قبل الهبوط.

أستطيع بكلتا عيني أن أنظر إلى مانسا، التي كانت دائماً تكره الكتب، مانسا التي لم تقرأ كتاباً في حياتها، باستثناء تلك التي تحملها دائماً إلى النوم بسرعة. كان يومها ينتهي مثلما تنتهي أيام الملائكة.

في ذلك الوقت، مهّد الشفق طريقاً نحو الظلمة، وعندما كان الفئان العجوز يقف من أجل تعديل السلم، كما لو كان يتدلّى من السماء.

مدّت مانسا يدها في اتجاهي، وأخبرتني أن العجوز كان آخر عشيق لها، آخر ما يربطها بسلسلة الرجال الذين عرفتهم. كان ذلك نتيجة لمحاولته أن يعشقها بتلك الروح التي قرّر أن يعوّض لها عبر بناء تمثال لها، وعبره تستطيع أن تنتشي بالحديقة بقيّة حياتها، وتضعه على قبرها كفنّاً ثقيلاً عندما تموت. وعندما كان يعمل، مفضلاً العبارة التي كانت على وجه الملك الساطع أمام ضوء القمر. أظهرت لي مانسا الكوخ، من القبو إلى العلية مفسّرة بصوت خافت كيف جاء الملاك، وكيف امتثلت له، وطار بمسحاته، ورمى كلّ أشيائها في الأرض في الغابة. ضرب الفأس الأرضية، ونام في خيمة معها. ولكن؛ بعد ذلك، رمته إلى فوق من أجل البناء الذي صنع الحبّ لها في الخيمة، وقام برفع الحيطان، وبعد ذلك، حلقت مانسا مع النجار الذي قام بعمله، وقام بمشاركتها فراشها، ولكن؛ لاحقاً رمته إلى السمكري الذي نام في الفراش نفسه الذي نام عليه النجار؛ فقط كي ينام

بدله عامل السقف الذي يمارس معها الجنس، ويبنى لها سقفاً بخرسانة القرميد، والذي في نهاية المطاف عوض ببناء آخر. البناء الذي قام برش الحائط، إلى أن أخذت برأي صانع الخزائن الذي قام بتأثيث المنزل بأثاث جديد بعودته إلى فراشها. كانت تلك مانسا. بلا شيء غير فراشها وهدف واضح المعالم أن يكون لها بيت. والآن هي مع فتان، رغم حبه الأفلاطوني، كان كما لو كان قد دفن تمثالاً لها في شكل ملاك. التمثال الذي حملنا إلى نقطة البداية، ويكمل دورة مانسا الحياتية في الوقت المناسب من أجل رؤية البط الأبيض. وثوب أزرق يمتزج مع ضوء القمر. كان شقافاً. يتسلق السلم كما لو كان في قادمًا من الجنة. وعندما ضغط حذاءه على الأرضية، قدم لي الشيخ الأسيب يديه، وقال إن مانسا حدثته عن كل شيء يتعلق بي، إن مانسا كانت شاعرتة، وإنها قدمت له خدمة جلييلة؛ مما جعله في استعداد لمواصلة العمل وبناء ملاك لها.

عدتُ إلى براغ في القطار الأخير. عدتُ إلى المنزل، كنتُ سكراناً، وأنا أستلقي على الفراش بملابسي مع طنين من سرادق الكتب. وكلما استلقيتُ هناك مفكراً، اكتشفتُ أن مانسا صارتُ دون أن تشعر شيئاً ما لم تحلم يوماً أن تكون عليه. وأنها ذهبتُ أبعد مما يتصور البعض. أنا الذي أقرأ الكتب باستمرار من أجل العثور على إشارة، لم أتلقَ ولو كلمة من الجنة، بينما هي، التي كرهتُ الكتب على الدوام، صارت كما تريد، شخصاً يكتب الناس عنه، والأهم من ذلك، حققتُ شموخها الذي سعتُ إليه.

عندما غادرتُ، لمع جناحها مع الليل مثل نافذتين في القصر الملكي. لقد أخذوها بعيداً خلف قصة حبنا، خلف شرائطها وخلف الروث الذي عادت به في مزلاجها، وتنزهتُ عبره أمام نزل رينير على خاصرة جبل الغولدن بيك.





## الفصل السابع



منذ خمس وثلاثين سنة وأنا أسحق الكُتُب القديمة في آلتِي الهيدروليكية. لم أحلم أن أفعل أيّ شيء آخر، لكن؛ بعد يومين من رؤيتي للآلة العملاقة في بابني، تحققت الأحلام التي لم أحلم بها قط.

ذات صباح استيقظتُ للعمل؛ لأرى في الساحة شائِبَين من الحزب الاجتماعي بققازاتهما البرتقالية، ورداءَين أزرقَين، وحمّلات بنطلون، وياقَتَين عاليتين، وقبعتَين بيسبول صفراوَيْن، كما لو كانا في طريقهما إلى مباراة. مديري أخذهم بقوة إلى أسفل مستودعي، وأراهم آلتِي. في لحظة، قاموا بتغطية الطاولة بورقة نظيفة؛ لوضع الحليب عليها، وكأنهما في منزليهما. جلستُ هناك يتملّكني الخزي، متوتراً ومشمئزاً، عالماً بكلّ هذا دفعة واحدة، بالروح والجسد، بالأشياء التي لم أستطع احتضانها إلى الآن. كنتُ في الموقف نفسه حين انتحر الرهبان عندما علموا أن كوبرنيكوس اكتشف قانوناً جديداً من قوانين الكون، وأن الأرض ليست مركز الكون. لم يتخيّلوا أبداً أن الأرض مختلفة عن ذلك الشيء الذي عاشوا فوقه وفيه قرناً طويلاً.

كان مديري يأمرني أن أكنس الباحة، أو أرتّب مستودع مولنترش للطباعة، أو أنظف الأوراق، لا شيء غير ذلك. فجأة عاد كل شيء إلى الوراء. أنا، الذي أمضى ٣٥ سنة وهو يُمرّق الأوراق القديمة والمتسخة. أنا الذي لا يستطيع العيش دون فكرة أن أنقذ الكُتُب الجميلة من الفضلات الكريهة. سيكون عليّ أن أضغط الأوراق النقية والأوراق اللإنسانية سوية. عندما

سمعتُ ذلك، كنتُ مذهولاً، متوتراً، سقطتُ جراً وثبة عالية من أول درج من المستودع. كتفاي يتدليان بين ركبتيّ، وابتسامة متشققة في وجهي كلما حدقتُ في الشائئين. لم أكن هناك من أجل لومهما، وعموماً، هما يقومان بما أمرا به. كان ذلك هو عملهما اليومي الذي من خلاله يعتاشان منه، ذلك هو عملهما. رأيتُهما يأخذان الأوراق الممرقة، ويضعانها في البرميل، ويضغطان الرزّين الأحمر والأخضر. تمنيّتُ لو أن آلتِي تُضرب عن العمل، أو تدّعي المرض، أو أن تقول إن التروس قد توقفتُ، أو أن إطاراتها قد ضعفتُ. لكنها لم تكن كذلك، كانت على قوّتها المعهودة، كما لو كانت في بداية شبابها، تغني وترقص وتشدّ الأحزمة. كانت تسخر منّي. تُريني أن القوّة توجد في أكفّ الحزب الاجتماعي فحسب. عليّ أن أعترف أنه في ساعة أو ساعتين بدا الشابان كما لو أنهما يعملان في المستودع منذ سنين. قسّما العمل بينهما، أحدهما يتسلّق الحزمة؛ كي يقدم بعض الورق، والآخر يراقب البرميل في الأسفل. في ساعة واحدة أنهيا خمسة أكوام. في كل مرّة كان ينحني المدير على الفتحة في السقف، ويقدم لهما جولة مسرحية من التصفيق بيديّهِ السمينتين. يُحدّق بي من الأعلى عبر الزاوية بعينه صارخاً. برافو، برافيسيمو. وبعد ذلك، يضيف ميلودوتسي. حينها يكون عليّ أن أخفض عينيّ، منتظراً إيّاه أن يرحل، لكنني لا أستطيع أن أحرّك ركبتيّ. شعرتُ بالخدر لشدّة العار، وكان أصوات الآلة تقول لي إن البطولة ستصل إلى نهايتها.

رأيتُ لاحقاً كتاباً يُحلّق عبر الأسنان اللامعة في البرميل. وقفتُ، دفعتهُ جانباً، ومسحتهُ بسترتي. ضممتُه إلى صدري لبرهة مثلما تضغط أمّ على ابنها، وتشدّه إلى صدرها. مثل جون هوس في تمثال كولين؛ حيث يضغط الإنجيل إلى صدره، إلى أن يدخل نصفه إلى جسده. بارداً كان كما كان. لكن الكُتُب دقّأتني.

رغم ذلك، حدقتُ في الشائئين اللذين كانا يُحدّقان بي كما لو أن لا

شيء قد حدث. استجمعتُ قواي، وحدّقتُ في العنوان، نعم، كان كتاباً رائعاً. سجّل تشارلز ليندبيرغ لأول عملية طيران حول المحيط. في العادة كنتُ أفكّر في فرتنيك شتورم، حفظ غرفة المقدّسات، مجموعة من الكُتب والمجلات حول الطيران؛ لأنه كان متأكّداً أن إيكاروس كان المنذر بقدم المسيح. الفرق فقط أن إيكاروس سقط من السماء إلى البحر، بينما المسيح أرسل في صاروخ أطلس، بوسعه حمل ٥٨٠٠ باوند إلى ارتفاع ٣٥٠ ميلاً، ولا يزال يدير مملكته الأرضية حتّى اليوم.

قلتُ لنفسي أن أسلك رحلة أخيرة إلى فرنكلين شتورم، إلى مختبره حاملاً قصّة ليندبيرغ الذي عبر المحيط، ثمّ ودّع الأفرّاح البسيطة.

كنتُ أترنّح في الساحة؛ لأرى أمامي المدير الذي كان مبتهجاً، ويزن كتب فتاة اسمها هيدفيكا، ثمّ يزنّها مع الكُتب التي أتت بها. لم يتغيّر أبداً: رأيتُ تجاه الكُتب القديمة، شعرتُ بالفتيات الصغيرات، كان يزنُ كتبهنّ، وبعد ذلك يزنهنّ. لم يخفق يوماً في وزنهنّ.

كان يحتفظ بمفكّرة عن أوزانهنّ، ويمارهنّ حتّى أمام الغرباء. كان يرفعهنّ من الخصر، ويضعهنّ على الميزان كما لو كان يريد تصويرهنّ. في كلّ مرّة كنّ يأتين، كان يقدّم لهنّ درساً طويلاً حول العمل على ميزان بيركل. كنّ ينظفّن أكتافهنّ وصدورهنّ باستمرار، وكلّما كان يُعلّمهنّ كيف تعمل المؤشّرات كان يقف خلفهنّ، والآن هو يقف خلف هادفيكا. يمسكها من وركيها، وأنفه يستنشق شعرها بطريقة مفعمة بالنشوة، وذقنه تشير إلى المؤشّرات. لاحقاً يقفز؛ ليحييها؛ لأن وزنها لم يزد، بعد أن يحصل على النتيجة، يساعدها بالنزول. يده على معصمها مرّة أخرى، أضاف كالعادة إنّ الوقت حان؛ ليعرف وزنه، وعندما كانت ترزّه، كان ينوح بصوته مهللاً بفرح مثل وعل طاعن في السنّ. ثمّ كتبتُ هيدفيكا وزنه على إطار الباب.

بعد ذلك، خرجتُ من الساحة إلى الشمس، كل ما رأيته كان وميضاً. عندما ذهبتُ إلى الكنيسة، رأيتُ فرانتيك شتورم يحيط بالهيكل كما لو كان قاطرة. عقله في مكان آخر.

كان لديه نصيبه من العثرات أيضاً. كان يعشق كتابة العبارات المحليّة على الأوراق عن السياق المكسورة. اختصاصه كان أن يقدم تقارير صباحية كل اثنين مجاناً حول أعمال الشغب التي انتهت بهذيان أو في مستشفى قريب أو عيادة. كل ما كان يرغب فيه هو أن يذهب من أجل الكتابة لصحيفة عالم التشيك، أو أخبار المساء. مات والده لاحقاً، والده الذي كان حافظاً لغرفة المقدّسات. كان على فرانتيك أن يتولاها. لكنه لم يتوقّف عن صياغة المعارك المسكرة داخل رأسه. كان لديه دائماً دقيقة، يذهب فيها إلى غرفته في بيت الكاهن، يغرق في كرسي قديم للأسقف. يقرأ كل ما يجده في يديه حول الطائرات وصانعيها. وحتى إن كان لديه مئتان من كُتب الطيران، أستطيع القول إنّه كان يفرك كفيّه، وبيتسم كلما قدّمتُ إليه كتاباً أجده في مستودعي. لم يكن ذلك في مكتبته الصغيرة. كنتُ أنظر إلى عينيّه وهي تغرورق بالدموع، أتحمّس نظرتّه وهي تحتضني، شعرتُ أكثر من ذلك أن أيّام مستودعي الصغير السعيدة قد انتهت. لم تكن لي فرصة أخرى أن أقدمّ علاجاً لفرانكلين شتورم. لذلك وقفتُ هناك، مَحْمِياً بجناحين ضعيفين، يتدليان في سلاسل فوق المذبح. الباب مفتوح والقديس يرقص، ويقول لفرانتيك بجفاء أن يخرج، ويحمل معه فساتينه. كان لديه بعض الشعائر المتبقّية فقط.

خرجتُ في ظهيرة مشمسة، متوقّفاً عند القديس تاديوس في بري ديو. وقفتُ أمامه برهة، قائلاً له كيف تعوّدت الصلاة من أجل الشفاعة، وكيف تستنى له أن يترك تلك الشاحنات الفظيعة التي تنقل أوراق المسالخ تغرق

في فلتافا. وكيف كنتُ أستمعُ بالصاق النجوم على قبّعتي، وأركعُ هناك؛ كي أسمعها تعبر. كنتُ أقولُ إنَّ الإشارةَ جميلة، الطبقةُ العاملةُ تزحفُ في اتِّجاه الصليب. وقفتُ هناك، قبّعتي إلى الأسفل، وفجأةً فكَّرتُ، لماذا لا أركعُ وأقدِّمُ إليه فرصةً أخرى؟! لمَ لا أصليُّ لأجل معجزةٍ أخرى لتاديوس؟ لأنَّ معجزةً واحدةً فقط ستعيدني إلى عملي، إلى آتي، إلى مستودعي، إلى الكُتُب التي لا أستطيع العيش دونها. كنتُ في طريقي إلى النزول على ركبتي، مَنْ سيهرع في اتِّجاهي غير أستاذ الفلسفة، الضائع على الدوام، نظَّارته تلمع في الشمس مثل منفضة السجائر؟!!

منذ أن ارتديتُ قبّعتي، سألتني، كيف حال الرجل؟ فكَّرتُ للحظة، وقلتُ له إنَّه ليس هنا. لا أعتقدُ أن ثمة خطباً ما. قال الأستاذُ خائفاً. لا. قلتُ. هو فقط داخل عاصفة. لكن؛ دعني أخبرك مباشرة، لن يكون هناك مقالات أخرى، لن تكون هناك ملاحق إنجلرمولر مرّةً أخرى. نزعْتُ قبّعتي بينما كان الأستاذُ ينظر إليّ. كان يفركُ أصابعه بعنف. سقط على ركبتيه. أشار إليّ باكياً. أنت تعني أنك الشيخ والشابُّ في آن. وضعتُ قبّعتي مرّةً أخرى، وسحبْتُها على عيني، وقلتُ بمرارة. نعم، صحيفة السياسات الوطنية لم تعد، وكذلك الأخبار الوطنية، أتسمعني؟ كنتُ أتعرّضُ للضرب خارج المستودع.

عندما كنتُ عائداً إلى البناية؛ حيثُ كنتُ أشتغلُ طيلة ٣٥ سنة، كنتُ جنباً إلى جنب مع الأستاذ، كان يرتعش، يركضُ أمامي، ويدفعني. عندما قدِّمُ إليّ ١٠ كرونات، وأضافُ خمسةً أخرى. نظرتُ إلى الأسفل تجاه المال، قلتُ بمرارة: إذا أردتَ مساعدتي، انظر. قام الأستاذُ بمسك ذراعي، ناظراً إليّ عبر عدسات سميكه بعينيّه. تتممُ قائلاً: نعم، سأساعدك على الرؤية. قلتُ إنَّ ذلك رائع، لكن؛ ماذا سأرى. أجابني أنني سأرى خطأً

جديداً. همس لي، بينما كان يترجّل إلى الخلف، وسرعان ما عاد أدراجه، كما لو كان عائداً من مسرح حادث. وعندما عدتُ إلى المدخل، وسمعتُ الجرس في آلتِي الهيدروليكية يرتفع بمرح كما لو كان مرتبطاً بمزلة مع حفلة زفاف مسكرة. كان عليّ أن أتوقّف، لم أستطع التحديق فيها. أعدتُ الوقوف مجدداً في الشارع.

لا أعلم أين أذهب، ووقفتُ وقد أعمتني الشمس، ولم تأت أيّ من تلك الجمل التي التقطتها من الكُتب؛ لتقدّم لي المساعدة تلك الساعة. لكن؛ بعد ذلك، عدتُ أدراجي إلى تاديوس، متدحرجاً على ريديو، واضعاً رأسي في يديّ، نائماً، أو ربّما متوهماً، أو ربّما قد غادرتُ العالم برهة؛ لأنني عندما أركع هناك، تكون يداي على عينيّ. رأيتُ آلتِي تتحوّل إلى وحش مثل آلات الضغط الأخرى، آلة كبيرة جداً، حيطانها الأربعة الأخرى تجتاح مدينة براغ كلها. رأيتُ نفسي وأنا أضغط الرّرّ الأخضر. رأيتُ الآلة تطحن مثل حركة خرّان كهرمائي. المباني تتقلّب مثل فأر في برميل قديم. تتقلّب مثل عجلات. رأيتُ الحيطان تتقدّم، تُدمر كل شيء يقف في طريقها. ومن نظرة طائر، رأيتُ الحياة في مركز المدينة تمضي كالعادة حتّى وان كانت الضواحي ملتهمة عبر أسنان المدينة الهائلة. ومثل الحيطان الأربعة ركزتُ على جزء واحد من المدينة. رأيتُ الملاعب والكنائس والمباني الشعبية والطرق المظلمة وجوانب الشوارع الضيقة تتساقط. لا شيء في وسعه أن يُبعد آلتِي عن تدمير العالم. رأيتُ القصر يتداعى مع قبة المتحف الوطني ونهر الفلتافا يرتفع. الآلة كانت شديدة القوّة كما لو كانت المدينة ورقة قديمة في مستودعي. الحيطان تستجمع قواها، وهي تجمع ما تمّ تدميره. رأيتُ نفسي كما لو كنتُ الثالوث المقدّس وهو يسقط على رأسي، لم أعد أرى شيئاً، لكن شعوري بنفسي كان مسحوقاً، ويُرْمى مع الآجرّ والخشب وبري ديو. كنتُ أسمع فقط القطارات والحافلات وهي



تسحق كلِّما التحمت الحيطان ببعضها، لكن؛ كان هناك مساحة أخرى فوق الحطام. كان ثمة هواء آخر فوق الأنقاض. إلى أن أُغْلِقَت الحيطان، وأخذ الهواء طريقه، متموجاً مع صرخة الإنسان الأخيرة. نظرتُ إلى فوق، ورأيتُ كومة هائلة واقفة في سهل مهجور، مكعباً ذي ٥٠٠ قَدَم، أو ربّما أكثر، ضُغَطَ فيها كل ما يتعلق ببراغ، بمن فيها أنا، كل أفكارِي وكُتُبي التي قرأتُها، حياتي بأكملها ضُغَطَتْ هناك. لم تكن شيئاً آخر أكبر من أصغر فأر يُسْحَق مع كُتُبي القديمة في مستودعي مع لواء الحزب الاشتراكي.

عندما فتحتُ عيني، كنتُ مندهشاً من رؤية نفسي وأنا أركع أمام القديس تادوس بري ديو، وللحظة شرعتُ في النظر بصمت إلى صدع يجتاح الخشب. لكن؛ بعد ذلك، وقفتُ، ورأيتُ سيارات تعبر، والضوء الأحمر يعبر مع القطارات. الناس يمشون، الناس لا يتوقّفون في شارع سبالينا. إنهم يندفعون من الطريق الوطنية إلى ساحة تشارلز جيئة وذهاباً. وقفتُ هناك منحنيّاً على حائط بيت الكاهن؛ لأتجنّب الضرب. عبر البوابة وقف فرانتيك شتورم. وبعد أن اجتاز الدرج بقفزات عظيمة، عاد كالعادة في اتجاه الباحة، كالعادة عاد وانحنى متسائلاً: هل في وسعك أن تكون السيد هانتا؟ وتظاهر بعودتك إلى الباحة. أجبته كالعادة: هذا هو اسمي، سيدي. عندما كان فرانتيك شتورم يقدّم إليّ ظرفاً بريدياً، منحنيّاً، ثم عاد إلى غرفته في بيت الكاهن. كنتُ كلِّما قدّمتُ إليه كتاباً، وضعه على سترته في مكتبته. كانت هناك ورقة كرنب تلامس رسالته التي ملئت بالتعاليم. عندما فتحتُها، وجدتُ كالعادة ملاحظة لفرانتيك شتورم وهو يقول.

سيدي، باسم فرنتيك شتورم نشكرك لتقديم كتاب ليندينبرغ روح القديس لويس الذي أضاف إلى مجموعتنا الكثير. ثق فيك من أجل أن تشرفنا بمحاباتك إلينا.

فرتيك شتورم في زاوية يُمْنى، مشيتُ إلى ساحة تشارلز؛ حيث مرّقتُ رسالة الشكر، كنتُ أعلم أنها الأخيرة؛ لأن أيام السعادة القصيرة قد وصلت إلى نقطة النهاية. آلتى قرعت أجراسهم، لقد خائنتني. وقفتُ في ساحة تشارلز أنظر إلى الأعلى، إلى تمثال إغناسيوس دي لويلا راسخاً في واجهة كنيسته. ما رأيته كان بريقاً ذهبياً على يمين حوض استحمام سينيكا مستلقياً في اعتدال. كان ذلك قبل أن يشقَّ أوردة معصمه، وبذلك أثبتَّ لنفسه كم كان على حقّ عندما أَلّف الكتاب الذي أعشقه. هدوء العقل.

## الفصل الثامن



بينما كنتُ متكئاً على حافة النافذة المفتوحة في كافيتيريا بلاك بروري أشربُ البيرة المحليّة، قلتُ لنفسِي: «من الآن فصاعداً، يا ولدي، أنت وحدك. عليك إجبار نفسك على الخروج ورؤية الناس وإمتاع نفسك، وأن تُمثلُ حتّى تتخلّى عن الشبح، لأنك الآن في دائرة من الحزن، والتقدّم يعني الرجوع. هذا صحيح. التقدّم نحو الأصول والعودة إلى المستقبل. عقلك ليس إلا آلة هيدروليكية تسحق الفكرة.» لذلك جلستُ هناك في الشمس، أشربُ البيرة، وأرى أفواج البشر في ساحة تشارلز، كلهم كانوا من الفتيان، من الطلّبة، ولدى كل منهم نجمة على جبهته، العلامة التي يأخذها كل شخص، بذرة العبقرية التي في عقولهم. وكانت عيونهم تلمع بحيوية. بنفس الدرجة كنتُ مثلهم قبل أن يخاطبني سيدي، ويلقّبني بالمغفل. كنتُ منحنيّاً على الدرابزين، ومستمتعاً برؤية القطارات تعود تذهب وتأتي. مستمتعاً بشرائها الحمراء. لديّ كامل الوقت في العالم الآن. أستطيع أن أذهب إلى مستشفى الفرنسيسكان، وأن أخذ نظرة من درج الطابق الأوّل، كما في القصة صُنع من خشب ألواح السقالات التي اشتراها الفرنسيسكيان في ١٦٢١ بعد أن سُنقت زهرة حكومة التشيك في ساحة المدينة القديمة. أستطيع الذهاب إلى حديقة كنسكي إلى الجناح المشهور؛ حيث تضغط زرّاً هناك، فينفتح الحائط؛ لتخرج الشموع. يبدو ذلك مثل قاعة بيترسبرغ للرعب؛ حيث يخرج في ضوء القمر شخص غريب بستّة أصابع، ويضغط زرّاً بالخطأ؛ ليظهر قيصر من الشمع، ينهره بإصبعه، تماماً كما وصفه يوري تينيانوف في قصّته

«تمثال الشمع». لكنني لا أرغب في أن أمضي إلى أيِّ مكان؛ لأنَّ كل ما أريده هو أن أغمض عينيّ، وكل ما سأراه سيكون أكثر وضوحاً من هذا العالم حولي، أفضل فقط أن أنظر إلى عابري السبيل بوجوههم الحلزونية.

عندما كنتُ صغيراً، كانت لديّ الأفكار الكبيرة نفسها حول نفسي. وللحظة فكّرتُ في كلِّ ما يلزمني من أجل أن أكون وسيماً. كان لي زوجان من الصنادل. نوع من الصنادل المفتوحة، صنّع من حزام وكعب فقط، وحاكت لي أمي جورباً، وحددتُ أنا موعداً في خمّارة لوار. بعد ذلك، كان الجدول مبكراً. لذلك جلستُ هناك أمام لوحة نصائح متفحّصاً التركيب المعدني حول الفتحة، إلى أن أحسستُ بأنني على استعداد بأن أنخرط في الجدول. بدا أن الجدول من الأسبوع الماضي. قرأته مرّة أخرى؛ لأنني شعرتُ بأن جوربي الأرجواني الأيمن والصندل قد غرقا في شيء واسع ورطب. لم أستطع النظر إلى أسفل. على كل حال، قرأته مرّة أخرى. أين كان اسمي؟ في النهاية، نظرتُ إلى أسفل، رأيتُ صندلي المفتوح بشريط واحد وكعب. صندلي غرق في روث الكلاب. حاولتُ قراءة الجدول مرّة أخرى بلطف، اسماً بعد اسم، كل الأسماء، إحدى عشر اسماً في الفريق الثاني، واسمي في الاحتياط. لكنني عندما نظرتُ إلى أسفل، كنتُ ما أزال واقفاً على روث الكلاب. وعندما نظرتُ إلى أعلى، من سأراه وهو قادم من بوابته غير بنت واعدتها! لذلك قمتُ بفكّ الرباط. سحبتُ قدمي من الجورب الأرجواني، وتركت الصندل والجورب وباقه تحت سبورة الملاحظات لفريقنا في كرة القدم، وهرعتُ إلى الملعب؛ حيث وقفتُ، وفكّرتُ بحظّ أوفر؛ لأنني عندما تعهدتُ بأن أمضي حياتي وأنا أسحق الكُتُب من أجل النجاح في الحصول على كُتُب جيدة.

في تلك الأثناء، كنتُ قد شربتُ مزيداً من كووس البيرة، وأحضرتُ مسنداً آخرأ إلى النافذة المفتوحة؛ حيث كنتُ متكئاً على الحافة، أنظر إلى الشمس، وأفكر فيما إذا كان عليّ أن أذهب، وأن آخذ نظرة على كنيسة

كلاروف برخامها الأحمر، وتمثال الملاك جبريل، وأن أتعرف على الاعترافات الرائعة للكهنة الذي صاغها على لوح في صندوق، جاء عبره الملاك جبريل إلى إيطاليا. بدلاً من ذلك، أغمضت عينيَّ بهدوء، وشردتُ؛ لأنني شربتُ البيرة، ورأيتُ نفسي بعد عشرين سنة من كارثة الجورب الأرجواني، وأنا أعبر ضواحي ستيتين؛ حيث صادفتُ سوقاً، وبينما كنتُ أمربين الباعة، لمحتُ رجلاً يحاول بيع صندل وجورب لقدم يمني. أستطيع أن أقسم أنهما كانا هما، حتى وإن كان المقاس عشرة ونصف. وقفتُ هناك مندهشاً بما حدث: إيمان المرء بإيجاد صندله وجوربه، وأن هناك مَنْ قد يذهب إلى ستيتين من أجل شراء جورب وصندل لجعله وسيماً. خلف ذلك الرجل ذي الإيمان الكبير وقفتُ امرأة عجوز تباع ورقتيْن من أوراق الغار، كانت تحملهما بين إصبعيها. غادرتُ محتاراً. صندلي قام بدورة كاملة، جاب العالم؛ ليقف في طريقي مرّة أخرى، كما لو كان يسعى إلى عتابي.

بعد أن أعدتُ كأس الفارغ، عبرتُ سكة القطار، وأكملتُ طريقي، جلستُ في منتزه أسحق تحت قدَمي الثلج المجمد، العصافير تزقزق. حدقتُ في الرُضّع في عربات الأطفال، والأمهات في المقاعد يتشمسن. وجوههنّ تميل باتجاه أشعة الشمس الصحيّة. وقفتُ أمام المسيح؛ حيث كان الأطفال يلعبون عراً، لمحتُ الشرائط امتدّت فوق بطونهم من المطاط في ملابسهم الداخلية. اعتاد يهود الحاسيديم في غاليسيا ارتداء الأحزمة، الأحزمة القوية التي في وسعها أن تقسم الجسد إلى نصفين، أن تقسم الجانب المقبول الذي يحمل القلب والرئة والكبد والرأس عن الجانب الآخر الذي يضمّ الأمعاء والأعضاء الجنسية. الأشياء التي بالكاد نحترمها. القديسون الكاثوليك رفعوا خيط الفصل. فوضعوا طوق رجال الدين مرئياً عند الرقبة كعلامة على تفوق الرأس؛ حيث يفرز الله شخصياً أظافره.

بينما كنتُ أنظر إلى الأطفال وهم يلعبون حفاة، رأيتُ الشرائط على بطونهم، أفكر في الراهبات اللواتي يقسمن الرأس إلى شرائح تضمّ الوجه

بشريطة واحدة متوحّشة؛ لتحوّله إلى قلنسوة ضيّقة مثل قلنسوة سائقي الفورميولا ون. هؤلاء الأطفال الذين يرشّون الماء لا يعلمون شيئاً عن الجنس، رغم ذلك كانت أعضاؤهم التناسلية كاملة مثلما علّمني لاوتزه. عندما فكّرتُ في شرائط الرهبان والراهبات ويهود الحاسيديم فكّرتُ في الجسد البشري كما لو كنتُ أفكّر في ساعة رملية. ما هو في الأسفل كان في الأعلى، وما هو في الأعلى كان في الأسفل. زوج من المثلثات المغلقة مثل ختم سليمان. التطابق بين كتاب شبابه، و«أغنية الأغاني»، ونضجه في معرفته بكتاب سيفر الجامعة. فجأة جذب عينيّ القديسُ أغناسيوس لويلا، ووميض هالة البوق المذهّب. فكّرتُ كم كان غريباً ضوء هذه التماثيل الأدبية. أكوامسكي، سافاريك، بالاكي. دائماً هم جاثمون على الكراسي، وحتّى ماشا الرومنسي يحتاج إلى أن ينحني على عمود. تماثيلنا الكاثوليكية مليئة بالحياة، مثل الرياضيين الذين ثبّتوا الكرة فوق الشبكة، أو أكملوا المئة متر في اندفاع، أو في زوبعة من الأحاديث. أعينهم المصنوعة من الأحجار الرملية وأكتافهم ترتفع كما لو كانت في طريقها إلى نقطة العودة إلى الله، أو مبتهجين بهدف الفوز.

اجتزتُ الشارع، وتركتُ الشمس من أجل سيزاك الذي كان مظلماً؛ بحيث أضاءت وجوه الزائرين مثل أقنعة، وكانت أجسادهم تغرق مع الظلال. وعندما مشيتُ إلى الأسفل في اتجاه المطعم، قرأتُ هذه البيانات من خلف شخص. هذا المنزل الذي كتب فيه كاريل هاينك ماشا كتابه ماي. جلستُ، وشعرتُ بالذعر سريعاً عندما نظرتُ في السقف، ورأيتُ المصابيح. كانت مثل مستودعي. لذلك هرعتُ، وقفزتُ خارجاً. بمن سأصطدم أمام المطعم بغير صديق قديم كان ثملاً مثل ملك، لكن؛ سرعان ما أخرج حافظة نقوده. بعد أن بحث فيها كثيراً، أخرج وثيقة من عيادة لإزالة السموم تقول: « هذه الورقة تشهد أن الموقعين أدناه لا يوجد لديهم كحول في مجاريهم الدموية هذا الصباح.»



قمتُ بلقَّها، وأعدتُها إليه، وقال لي صديقي إنَّه يخطُّط كي يبدأ حياة جديدة، ولم يشرب شيئاً غير الحليب طيلة يومين. والحليب جعله مشوَّش الذهن، لذلك أرسله المدير إلى المنزل في ذلك الصباح، بسبب سلوكيات تتعلَّق بالشرب؛ ممَّا تسبَّب في طرده يومين. لكنه عاد مباشرة إلى عيادة إزالة السموم. وعندما قاموا بإجراء اختباراتهم، وأنه لا وجود ولو لقطرة من الكحول في دمه، أخذوا الهاتف، وأخبروا مديرهم. متَّهمين إيَّاه بتدمير مشاعر العامل. لذلك من أجل الاحتفال بإدانة سيِّده في مفاصل وثيقة رسمية حول دمه النظيف، كان يُسرف في الشرب، إلى أن دعاني إلى مشاركته فيما كنَّا نقول عنه السباق الأعرج الذي وُقِّعنا فيه بنجاح مرَّة واحدة فقط بعد محاولات عديدة. كانت فترة طويلة؛ بحيث نسيت تفاصيل التجربة. نسيتُ صديقي أيضاً، ونسيتُ اسمه. كنتُ قد مدحتُه طويلاً؛ كي يفوز عليّ. انطلقنا من فلاشوفكا، وسرنا إلى «القرن الصغير»، وبعدها إلى «الجنَّة الضائعة»، وبعدها إلى ميلر، وإلى «معطف من الأسلحة». في كل مكان نتوقَّف فيه، كنَّا نطلب زجاجة واحدة كبيرة من البيرة، لأنَّه علينا أن نأخذ قسطاً من الراحة؛ كي نأخذها إلى جاروليميك ولادس. قبل أن نرجع إلى عالم الكافيتيريا، عبرنا هوسمان وبريوري، وبعد ذلك عبرتُ أمام الملك فاتسلاف إلى بوديل أو كروفتا، وأخيراً إلى دودا أو كروفتا قبل القدوم إلى منزل يمتدُّ على بالموفكا ومقهى شولر، لو لم يكن الوقت متأخراً كنَّا سنجتاز آخر خطِّ. نجري في سباق، التصق بي ثملاً، ولكن؛ في النهاية تمكَّنتُ من رميه جانباً، وتركت سيزاك، قاطعاً البقع الحلزونية في ساحة تشارلز؛ حيث كان عبْدَة الشمس يتحرَّكون إلى المقاعد التي هي الآن في الظلِّ. في طريقي إلى بلاك بريوري تناولتُ كأساً من الرَّم، وعلبة بيرة، وأضفتُ بعض النييد.

لن نَظهر أفضل ما لدينا حتَّى نُسحق تماماً. رأيتُ ساعة المدينة الجديدة من بين الفروع تلمع في الظلمة. مثل طفل حلمتُ أن أصبح مليونيراً، وأن

أشترى عقارب وأرقام فوسفورية لكل ساعات المدينة. الكُتُب المتهرّبة تقوم بمحاولة أخيرة من أجل تمزيق أربطتها. لوحة رسّام أشبه بوجه من الفطر. نسيم من نسائم الفلتانفا يعبر الساحة. أحببتُ ذلك، طالما أحببتُ المشي عبر لاتنا كلّ مساء. رائحة النهر تلتقي رائحة المنتزه. لكن رائحة النهر الآن ما تزال تملأ الشوارع. أذهب إلى بابانيتشك، أجلس هناك، وأطلب بيرة بذهول، طنين من الكُتُب ينقرضان فوق رأسي، سيف يومي لديموقليس علّقته فوقي. أنا طفل يغادر المدرسة بتقرير سيء عنه. الفقاعات ترتفع مثل خصلة شعر. ثلاثة شبّان في زاوية يعزفون الغيتار، ويغنّون بلطف. كل ما هو على قيد الحياة لديه عدوّ. حزن العالم جاثم تحت رغبة تجديد الذات. ذلك النموذج اليوناني وهدفه، الجمنازيا والجامعات الإنسانية.

لكن؛ في مجاري براغ هناك جيشان من الفئران المسجونة في معركة الصراع بين الحياة والموت. الساق اليمنى مهترئة على مستوى الركبة. تناير زرقاء وبنفسجية. أياد ضعيفة ترتعش مثل أجنحة. جانب هائل من عضلة معلّقة في صنّارة لجرّار ريفي. أسمع مراحيض متوهّجة.

فجأة فُتح الباب، واندفع عملاق مع كتلة ضخمة من الدخان من النهر، وقبل أن يعلم أحد ما كان يحدث، أخذ كرسيّاً، حطّمه إلى نصفين، ولاحق الزبائن المرتعبين في زاوية. اصطفّ الشبّان الثلاثة على الحائط مثل حلزون تحت المطر. ولكن؛ في اللحظات الأخيرة، عندما أخذ الرجل نصف كرسي، وظهر أنه مستعدّ ليقوم بجريمة قتل، كان يغني، وقبل أن يغني «أيتها البطة السوداء، أين كنت؟» علّق نصف الكرسي جانباً، ودفع للنادل ثمن ما قام بتدميره، ثم عاد إلى الزبائن المرتعبين قائلاً: «سادتي، أنا مساعد الشانق»، وعندما رحل، كان منزعجاً وحزيناً. ربّما لأنه كان في السنة الأخيرة الجرّار المشرف على محلّ لبيع اللحوم في هولشوفيتسه. وضع سكيناً على رقبتني،

ودفعني إلى زاوية، أخذ ورقة، وروى لي قصيدة حول جمال الريف في ريكاني، ثم اعتذر لي، وقال لي إنه لم يجد أيّ طريقة أخرى؛ لئُصت الناس إلى قصائده.

دفع لي ثمن بعض البيرة، وثلاث زجاجات من النبيذ، خرجت؛ لأستمع بالنسائم، وأسلك طريقي في اتجاه ساحة تشارلز؛ حيث كانت ساعة برج المدينة الجديدة تشير إلى توقيت لا فائدة منه. لا مكان أذهب إليه. كنتُ أطوف في الفراغ. ثم وجدتُ نفسي أمشي أسفل لازارسكا، ثم عدتُ إلى جانب الشارع، أفتح باباً خلفياً، تحسستُ الجدار بحثاً عن الرّزّ الكهربائي. عندما أضأتُ النور، كنتُ هناك، عائداً إلى قبوي؛ حيث أمضيت ٣٥ سنة وأنا أسحق الأوراق المهملة في آلي الهيدروليكية. لماذا قال لاوتزه: أن تُولد يعني أن تخرج، وأن تموت، يعني أن تدخل! أمران يملآن عقلي حيرة جديدة ومتزايدة. فوق سماء مرصعة بالنجوم وعملي أيضاً، عملي المرعب يحتاج إلى شهادة إلهية. أضع في البرميل أكوام الأوراق المتسخة، أضغط الرّزّ الأخضر، عين الفأر حدثني عما هو أكثر أهميّة من النجوم المرصعة. حبيبتي العجربة قدمت إليّ في الحلم، وعندما كانت آلي تستمرّ في عملية السحق مثل هليكون في كَفّ عازف هارمونيكا. أبعدتُ غلاف هيرونيموس بوش من صورة كتابي المقدّس، فوجدتُ كتاب الملكة بروسيا. سوفي شارلوت قالت لخادمتها لا تبك؛ كي تُرضي فضولك، سأذهب لأرى ما الذي أخفق لينتز في تعليمي إيّاه. عليّ أن أجتاز حدود الوجود وحدود اللاشيء.

قُرِع الجرس، وبرز اللون الأحمر، تراجع الجدار، وضعتُ الكتاب جانباً، وملأتُ البرميل. جسدها مغطى بالزيوت، إنها سلسلة كقطعة ثلج، تبدأ بالدوبان. آلة بابني الهائلة ستفعل ما فعلته أنا تماماً.

السيدان سارتر، كامو، عبّرا عن هذا الأمر بجديّة، خصوصاً هذا الأخير.

الأغلفة اللامعة تُغازلني، وهناك شيخ بسترة زرقاء وحذاء أبيض يقف على السّلم. يندفع الغبار مع رفرفة أنيقة لجناحين.

حلّق ليندبيرغ فوق المحيط. وضعتُ لِنفسي فراشاً من الأوراق القديمة، ما تزال خطيبي لي، لا يوجد شيء أشعر بالعار من أجله، مثل سينيكا التي رميتُ فوقها قَدَمًا، كانت تقف في الحوض، عندما انتظرتُ لحظة؛ كي أخذ جزءاً آخر صارخاً. انطويتُ في شكل كرة؛ كي أرى كيف كانت، ثمّ وقفتُ على ركبتي، ضغطتُ الرِّزّ الأخضر، وعدتُ إلى فراشي المكوّن من الأوراق القديمة والكتُّب. محتضناً نوفاليس بحميمية، إصبعي عثر على جملة طالما ملأتني بانقسامات كثيرة. ابتسمتُ بسعادة؛ لأنني كنتُ أكبر بكثير من مانسا وملاكها. أنا أدخل إلى عالم، لم أدخله من قبل؛ أين أجد جملة تقول: «هدف كل حبيبة هو مركز الحديقة في الفردوس». بدل أن أضغط الكتُّب النظيفة، في ميلان تريش في مستودعي، سألاحق سينيكا، سألاحق سقراط، وهنا، في آلتني في قبوي، أختار طريقة للسقوط وللصعود. حتّى وإن ضغطت الحيطان ساقِي إلى ذقني، أرفض أن أخرج من الجنّة. أنا في مستودعي، ولا أحد يملك القدرة على طردني. زاوية من الكتُّب مستقرّة تحت ضلع. أنا أتأوّه، قُدّر لي أن أغادر الحقيقة الأزلية المعلّقة في رفّ عالمي الخاص. منكمشاً في ذاتي مثل مطواة جيب لطفل صغير. في لحظة الحقيقة، أرى الفتاة العجربة الصغيرة، الفتاة التي لا أعرف اسمها، نحن نُمسك بطائرة ورقية في سماء شتوية. هي تُمسك بالجبل، أنا أنظر إلى الأعلى، الطائرة الورقية أخذت ملامح وجهي الحزين، والعجربة تُوجّه إليّ رسالة من الأرض، أراها تسلك طريقها عبر الجبل، أكاد أصل إليها الآن، أمدّ يدي، أقرأ الأحرف الطفولية الكبيرة: إلونكا. نعم هذا كان اسمها.

## بوهوميل هرابال (\*)

يُعد بوهوميل هرابال أبرز أديب تشيكي في القرن العشرين. ولد في مدينة برنو نتيجة علاقة عابرة بين أمه ماري وأحد شباب المدينة، ثم تزوجت ماري فرانتيشك هرابال محاسب مصنع «البيرة» في مدينة بولنا، فوجد فيه نعم الأب. انتقلت العائلة الجديدة إلى مدينة نيمبورك على نهر إلبه، حيث تلقى بوهوميل تعليمه وأمضى سنوات يفاعته. ظهرت تجارب هذه المرحلة في ثلاثيته القصصية "بلدة على شاطئ النهر" وفي "البلدة التي توقف فيها الزمن". لم يبدِ هرابال اهتمام بالمدرسة وواجباتها، بقدر ما اهتم بالحياة الملونة في معمل البيرة وبجوزيف عم بيبن شقيق زوج أمه الذي أتى بقصد الزيارة، فبقي أربعين سنة حتى وفاته، والذي أطلق هرابال على أسلوبه في الحديث صفة «النهر المتدفق» وأتبعه في معظم كتاباته، ولاسيما في قصته الطويلة «آلام العجوز قرتز» التي غير عنوانها ونشرها في عام ١٩٦٤ بعنوان "دروس رقص للكبار والمتقدمين". بعد حصوله على الشهادة الثانوية عام ١٩٣٥ انتسب هرابال إلى كلية الحقوق، وصار يحضر في الوقت نفسه محاضرات تاريخ الأدب والفن والفلسفة، ولم يتمكن من إنهاء دراسته حتى عام ١٩٤٦ بسبب إقفال الجامعة في فترة الاحتلال النازي لبلده، فعمل في أثناء الحرب في الخطوط الحديدية وفي شركة للتأمين وبائعاً متجولاً، ثم في معمل لصهر الحديد منذ عام ١٩٤٩. وتعرض في عام ١٩٥٣ لحادث مؤلم اضطره إلى الانتقال إلى مستودع لجمع الورق القديم. وقد تجلت تجارب هذه المرحلة في بعض أبرز أعماله القصصية

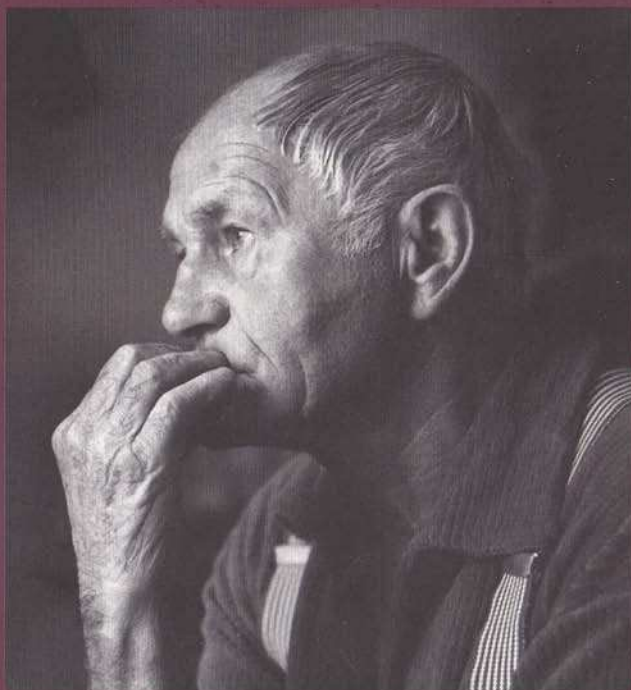
(\* المصدر: الموسوعة العربية.

مثل "عزلة صاحبة جداً". وفي الجزء الأول من سيرته الذاتية الثلاثية "أعراس في البيت" وفي "خدمتُ ملك إنكلترا" بدأ هرابال الكتابة الأدبية منذ ثلاثينيات القرن العشرين، لكنه لم ينشر أيّاً من كتاباته حتى الخمسينيات، ولم يتفرغ كلياً للأدب حتى عام ١٩٦٣. لكن السلطات السوفييتية في تشيكوسلوفاكيا منعتة من النشر منذ عام ١٩٧٠ فصار ينشر بعض أعماله في مجلات المهجر ودور نشره. نشر في عام ١٩٧٥ مقالة في النقد الذاتي في مجلة «تفوربا» Tvorba في براغ، أدت إلى التساهل معه رقابياً، ولكن بحذر بالغ. وبعد تفكك المنظومة الاشتراكية عام ١٩٨٩ وقيام جمهورية تشيكيا صدرت مؤلفاته الكاملة بين ١٩٩١-١٩٩٧ في تسعة عشر مجلداً عن دار نشر "خيال براغ" وبلغ مجموع ما طُبع من مؤلفاته باللغة التشيكية حتى اليوم ثلاثة ملايين نسخة، كما تُرجمت بعض مؤلفاته البارزة إلى ثلاثين لغة، وكان أحد أسباب شهرته عالمياً هو تحويل روايته "قطارات مراقبة جيداً" إلى فيلم سينمائي نال جائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي في عام ١٩٦٧. كما أعيد اقتباس الرواية للسينما مرة ثانية في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧١.

اعتمد هرابال في موضوعات رواياته وقصصه على أحداث من الحياة اليومية يتورط فيها أناس عاديون من دون أن تكون لهم سلطة على سير الأمور أو قدرة على استيعاب ما يجري. ويتسم أسلوبه بقدرة تعبيرية بصرية عالية، وبميل إلى الجمل الطويلة المتدفقة، إلى جانب حس فكاهي ساخر وساحر، يعتمد كثيراً على شخصية (الأحمق الحكيم) الذي تبدر عنه في اللحظات الحرجة أفكار في غاية العمق.

توفي هرابال في أحد مستشفيات براغ بعد أن سقط من شرفة الطابق الخامس عندما كان يطعم الحمام البري على ما يبدو. وقد شك بعضهم في كون سقوطه انتحاراً وليس حادثاً، ولاسيما أن الأسلوب قد ورد في مشهدين من أعماله.





**بوهوميل هرابال**: يُعد بوهوميل هرابال أبرز أديب تشيكي في القرن العشرين. ولد في مدينة برنو نتيجة علاقة عابرة بين أمه ماري وأحد شباب المدينة، ثم تزوجت ماري فرانتيشك هرابال محاسب مصنع «البيرة» في مدينة بولنا، فوجد فيه نعم الأب. انتقلت العائلة الجديدة إلى مدينة نيمبورك على نهر إلبه، حيث تلقى بوهوميل تعليمه وأمضى سنوات يفاعته. ظهرت تجارب هذه المرحلة في ثلاثيته القصصية ... (في داخل الكتاب عرض مطول لحياة الكاتب (ص ٧)).





«أفضل كتابنا اليوم».

«كتاب واحد من كتب بوهوميل هرابال، يختصر كل ما عجزنا نحن جميعاً عن تقديمه لأجل إنسان متحرر، رغم كل ما نفعله بإيحاءاتنا واحتجاجاتنا الصّاحبة.» ... ميلان كونديرا

نشر بوهوميل هرابال هذه الرواية بنفسه في عام ١٩٧٦، ولم تُنشر رسمياً حتى العام ١٩٨٩ بسبب رقابة الدولة البوليسية وقتها. تروي "عزلة صاحبة جدا" قصة رجل عجوز أبله يعمل في إتلاف الورق في براغ؛ يحفظ ويجمع أعداداً كبيرة من المخطوطات والكتب النادرة والمحظورة من خلال عمله. هي حكاية جامع معرفة مهووس ينتصر على الدولة البوليسية التي أرادت أن تنتصر على المعرفة ... الناشر

هرابال هو صرخة ضد نهاية الإنسانية، وكتابه "عزلة صاحبة جدا" هو إنقاذ من اللامبالاة القاتلة الفعالة في قتل الحرف أكثر من أشدّ آلات الإتلاف تعقيداً. ... نيويورك تايمز

أطلقت حكايات بوهوميل هرابال عن الناس العاديين ثورة سينمائية في وطنه، وأصبحت الحانة التي اعتاد على ارتيادها في براغ مزاراً لكبار الشخصيات. أثبت هرابال أنه أسطورة زمنه. ... صحيفة الغارديان



ISBN 978-88-99687-75-5



المتوسط